أبو الطيب المتنبي

حياته وشعره

عنوان الكتاب : أبو الطيب المتنبي (حياته وشعره)

تأليف : مجموعة مؤلفين

اختيار تقديم : فلك حصرية

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم/162/ كانون الثاني

الناشر : اتحاد الكتاب العرب

الإخراج الفني : وفاء الساطي

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتاب العرب

البريد الالكتروني: mawkif@tutanota.com

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu.sy

أبو الطيب المتنبي
حياته وشعره

تأليف
مجموعة مؤلفين

اختيار وتقديم
فلك حصرية

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم (162)

التقديم

فلك حصرية

أبو الطيب المتنبي : مالئ الدنيا... وشاغل المفكرين

لك أن تختصر حياة في سطور أو صفحات أو ملفات بعينها.. لك ذلك إن أردت، وبإمكانك تحقيق هذه الغاية، وولوج هذا الهدف ضمن ما أردت وما أملاه عليك الفكر، وصوبك إليه رغبة خالجت نفسك وامتلكت عليك حواسك، وأسرت أفكارك معبدة طريق البوح أمامك بوشاح مختصر ربما أو فضفاض لعل... أو واسعاً جداً ارتأيته الأصوب في الوصول إلى تفاصيل التفاصيل لمصطلح مكثف أضيفت فيه الحياة إلى شخصية أردتها ووقع عليك اختيارها في مسعى حقيقي وشفاف لاكتشاف المزيد من الجوانب الغامضة، والزوايا التي ـ ربما ـ ما تزال ـ في انتظار إماطة اللثام، وتذيّل المادة بما تعتقده يتوافق مع الجدة والإضافة للإحاطة الباسقة

بجوانب المعرفة والتعرف أكثر إلى ما تريد تقديمه، ودفعه إلى القارئ العزيز، الذي بات المثول بين يديه يشكل خطراً في عصر المعلوماتية والانترنت، وثقافة اللا حدود واللا اختصار أو مواجيز...

هي إذاً حياة من الصعوبة بمكان أن تختصر في بضعة سطور فكيف لشخصية فذة كأبي الطيب المتنبي /مالئ الدنيا... وشاغل الناس/ أن تحصر بين قوسين، وتختصر ضمن كلمات... هذا المتنبي: الفارس والشاعر والحكيم والماجد... وقبل هذا وذاك وبعد ذلك وذاك الرجل المقدام الشجاع وقد دفع حياته ثمناً لا يُقدّر بكنوز الأرض قاطبة، ولا يقابله رقم مالي تعجيزي ـ إطلاقاً ـ حياة الفارس، بل فارس الفوارس في مقابل صيحة تحدٍ، وصرخة رجولة وزئرة كبرياء اختصرت جميعها:

الخيـــل والليـــل والبيـــداء تعـــرفني

والســـيفُ والـــرمحُ والقرطـــاس والقلـــم

أنى لنا أن نختصر فارساً في سطور، وحياة في كلمات، ليقف السؤال المعجز: من أين نبدأ؟! وكيف؟! وهل بإمكاننا أن نفي هذا الشاعر الفارس حقه ونحن في محراب إبداعه:

قولاً وفعلاً... ثم إلي أي مدى استطاع ضيوفنا في هذا الكتاب من أصحاب الفكر والأدب والثقافة والنقد مثل (عباس محمود العقاد ـ د. محمد حسين هيكل ـ أحمد محرم ـ أحمد أمين ـ خليل مطران ـ علي الجارم ـ د. زكي مبارك ـ سامي الكيالي ـ عيسى اسكندر المعلوف ـ شفيق جبري ـ أنيس مقدسي ـ محمد شوكت التوني ـ حسن محمد الهواري ـ عبد الرحمن صدقي ـ طاهر أحمد الطناحي ـ الأمير شكيب أرسلان ـ سليم عبد الأحد ـ محمد محمد توفيق ـ علي أدهم ـ محمد مظهر سعيد ـ البرقوقي ـ نقولا الحداد) وقد كتب كل في مجال يختلف فيه عن الآخر، متناولاً منحى أراده هو وأحب أن يعمق في مضمونه أو الإضافة إليه. على كل لو أردنا الخوض في المضامين التي أوردها هؤلاء المفكرون المتعمقون في شؤون الأدب والشعر والحياة وغيرها من المسائل والنقاط الهامة لوجدنا أن أبا الطيب المتنبي، حلَّ في هذا الكتاب أو كانت الدراسات التي تناولته على أيدي هؤلاء الأعلام الشهيرين إنما تستهدف شخصيته الشعرية التي تعرفناها من تاريخه وتاريخ عصره، وقد كان عصره عصر مغامرات ودعاوي سياسية ودينية، وخصومات مذهبية، وشكوك جاءت من التفكير والاطلاع وشكوك جاءت من اللجاجة في المناقشة والحوار.

وقد كان هذا الشاعر رجلاً لا يعوزه الاعتداد بالنفس، ولا الطمع في الجاه، ولا ملكة البلاغة، والقدرة على المنظوم والمنثور مع شيء من الفروسية، كما ثبت من مجمل تاريخه، ومجل كلامه "وهذا ما أكده الناقد الكبير عباس محمود العقاد" حتى إذا ما توقفنا عند السر الكامن وراء الاحتفال بالمتنبي تصدى للكشف عن ذلك "محمد حسين هيكل" مشيراً إلى أن أولى الحفلات التي أقيمت لمناسبة انقضاء ألف عام على وفاة أبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبي أقيمت بدار الجامعة الأمريكية ببيروت في اليوم الثاني من شهر /يونيو ـ حزيران/ 1935 بناء على دعوة جمعية العروة الوثقى بالجامعة المذكورة. ويصل الحال بالكاتب إلى القول: "فالعظيم الذي صمدت عظمته للزمان ألف سنة تباعاً، جدير حقاً بأن يذكر، وبأن تخلد ذكراه ويضيف: ولا عجب إن سارع الشباب الذي يتكلم العربية للاحتفاء بذكرى المتنبي بمناسبة انقضاء ألف عام على وفاته، وكيف لا يستفز الشباب مثل قوله:

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم

بين طعن القنا وخفق البنود

فاطلـــــب العـــــز في لظـــــى ودع الـــــذ

ل ولـــــو كـــــان في جنـــــان الخلـــــود

و"من شاعر إلى شاعر" يوجه الشاعر الكبير أحد محرم قصيدته الشعرية التي تحمل العنوان السابق إلى المتنبي إذ يصدح قائلا:

أنظـــــر إلـــــي الـــــدُّنيا عليـــــك ترفـــــرف

واسمـــــعْ شـــــعوبك في الممالـــــك تهتـــــفُ

ضـــــحُّوا بـــــذكرك، فالقياصـــــر خشّـــــعٌ

بـــــين المواكـــــب، والأرائـــــك رجَّـــــفُ

تقـــــف العواصـــــف دونَ عرشـــــك ركـــــدّاً

والـــــدهر يرمـــــي بـــــالعروشِ ويعصـــــفُ

ويظـــــلُّ تاجـــــك مالـــــك مـــــن خـــــاطفٍ

والنَّـــــاس والتِّيجـــــانُ حوْلَـــــك تخطـــــفُ

ملـــــك البيَّـــــان إليـــــك فـــــوَّض أمـــــره

فـــــاحكم فأنـــــت المالـــــك المتصـــــرِّفُ

تعـــبَ الخلـــودُ ومـــا تعبـــتَ وإنـــني

لأرى الخلـــودَ يضـــيقُ عنـــكَ ويضـــعف

وربما يشير /أحمد أمين/ إلى أن المتنبي لم يكن أبداً بفيلسوف كما يعتقد البعض وقد نوَّه إلى ذلك في مقالة له تحت عنوان /فلسفة أبي الطيب ـ هل كان المتنبي فيلسوفاً/ يقول:

"ويخطئ من يظن أن لأبي الطيب فلسفة تشمل العالم، وتحل مشاكل الكون، فتلك بالفيلسوف أشبه، وربما قارب هذه المنزلة أبو العلاء لا أبو الطيب، فلئن كان أبو العلاء فيلسوفاً يتشاعر، فإن أبا الطيب شاعر يتفلسف، إنما لأبي الطيب خطرات في الحياة من هنا، ومن هناك، لا يجمعها جامعة إلا نفس أبي الطيب والمحيط الذي يسبح فيه ويتشرَّب منه".

وإذا ما أتينا إلى الشهير /خليل مطران/ وهو يخط دراسته ضمن عنوان "أبو الطيب المتنبي... كان عبقرياً ولكن..." فيسجل بسطور من إبداع وحقائق: "أنا أخط هذه السطور وأبو الطيب متمثل في ذهني بناحية منه سما بها إلى أعلى الذرى، وأخرى تدلى بها إلى قرارة بعيدة الغور: أما الناحية التي رفعته فهي عبقريته ـ وأما التي خفضته فهي طمعه. صراع شديد قام

في نفسه من بدء أمره بين الهدى والهوى. أحس بأنه وهب ما لم يوهبه غيره من وفرة العقل، والقدرة على البيان، فكان أول ما ملكه في طلب العلياء أدعاؤه النبوّة. غير أنه لم يقم أن تبين من أية قمة شاهقة أشرف على هوة سحيقة مردية. فتاب عندما استتيب، وعاد متضعاً لا متواضعاً إلى الطريق المعبد الذي طرقه الشعراء منذ جعلوا القريض وسيلة ارتزاق، فنظم المديح للذين استند جوانبهم من ذوي الجاه العريض. وفي قصائده الأولى خليط عجيب نتبين فيه المشاكسة العنيفة بين الطبع والتطبيع، فآناً يحاكي المبرزين من شعراء عصره، فتضعف إجادته، وتعتاص أساليبه، وترتبك صوره، وآناً يرجع إلى وحي فطرته، ويسعده استحكام ملكته، فيأتي بالسوائح المبتكرات في حبر لا تلبس أحسن منها الغواني الخفرات".

وهكذا تمضي بنا رحلة الكلمات حتى إذا ما وصلت بنا إلى ما سطره الدكتور الأديب والناقد زكي مبارك حول "الدسائس الأدبية بين المتنبي والصاحب بن عباد/ استوقفنا التالي:

"هذا فصل موجز أصور به لوناً من ألوان الدسائس الأدبية التي شهدها القرن الرابع. وما أريد في هذا الفصل أن أتحدث عن حياة المتنبي. وما أريد أن أتحدّث عن حياة الصاحب فقد

أطلت فيه القول في كتاب النثر الفني. وإنما أقف عند مسألة واحدة كان لها أثرٌ في تلوين النقد الأدبي عند كتاب القرن الرابع، وتلك هي الخصومة بين المتنبي والصاحب بن عباد والمطلعون على التاريخ الأدبي لذلك العهد يعرفون أن الصاحب كان يتشهى أن يستعبد كبار الكتاب والشعراء، ويعرفون أن نفسه تسامت إلى استعباد المتنبي، وأنه خاب في ذلك، وكانت هذه الخيبة جرحاً بليغاً تنزى له قلب ابن عباد، فحقد على المتنبي، وحرَّض عليه كبار الناقدين" وتبقى للقراءة متابعة مع عناوين هامة أخرى:

"عبرة الشباب ـ لمحة عن المنازع القومية في المتنبي ـ من نوادر أبي الطيب ـ حياة المتنبي حياة متعبة ممزوجة بالدم ـ أبو الطيب في مصر نبي في بلاد الوحي لا يوحي إليه ـ الحياة الفنية في عصر المتنبي ماذا بقي منها؟! ـ جنون العظمة في المتنبي (مرض نفسي ـ فضيلة خلقية ـ المتنبي بين محاسنه ومبادئه ـ أبو الطيب المتنبي تاجر من تجار الأدب ـ شهرة المتنبي شهرة العظمة والفن الخالد ـ هل كان المتنبي متديناً؟! نفسية المتنبي ـ الغموض في شعر المتنبي".

هذه العناوين الهامة نتركها بين أيدي القراء الأعزاء في مرمى للاطلاع الشخصي على ما تثيره بعض الأسئلة وما تصادفه من أجوبة ضمن صفحات كتاب الجيب هذا، ليبقى الختام معطراً بأجمل ما قاله مالئ الدنيا وشاغل الناس... ولا مناص من أن نختم بما أورده الأستاذ نقولا الحداد في رأيه الشفاف والشفيف حول أبي الطيب المتنبي:

"لا جدال في أن المتنبي أحد أكبر الشعراء المعدودين. وقد لا يعذل من بعده أعلاهم كعباً، ويمتاز شعره بما فيه من سمو الخيال الذي لا يكاد يطاول، وابتكار المعاني التي ترى كأنها مختلقة من العدم، واختراع الصور الفنية التي تهتز لها النفس إعجاباً، والإبداع في إبراز المعاني التجريدية في ذاتيات حسية، إلى غير ذلك من المزايا التي تدل على ذكاء باهر وفكر ثاقب، بحيث يظن أنه لو صرفه القدر إلى التفكير العلمي أو الفلسفي لأصاب منه منزلة في عصره مثلما أصاب من المنزلة في الشعر".

شخصية المتنبي في شعره

بقلم الأستاذ عباس محمود العقاد

"..فهو حيث قلبت من حكمته أو فخره أو غزله أو رثائه"

هو هو المعتد بفضله ، الفاشل في أمله ، الساخط على زمنه.."

شخصية المتنبي التي نعرفها في شعره هي شخصيته التي نعرفها من تاريخه وتاريخ عصره وقد كان عصره عصر مغامرات ودعاوي سياسية ودعاوى دينية وخصومات مذهبية وشكوك جاءت من التفكير والاطلاع، وشكوك جاءت من اللجاجة في المناقشة والحوار. وكان أناس من طلاب المناصب يرتقون في ذلك العصر كما ارتقوا في العصور التي قبله إلى مناصب الوزارة وليست لهم من شفاعة في الظاهر غير شفاعة الكتابة والأدب. فكان في العصر ما يغري الأديب المغامر بالتطلع إلى جاه الدنيا من طريق المغامرة، ومن طريق البراعة الأدبية. وكان المتنبي رجلاً لا يعوزه الاعتداد بالنفس ولا الطمع

في الجاه ولا ملكة البلاغة والقدرة على المنظوم والمنثور مع شيء من الفروسية كما ثبت من مجمل تاريخه ومجمل كلامه. فالشعر الذي نقرأه في الديوان لا يستغرب من الشاعر الذي نظمه ولا من الرجل الذي علمنا بسيرته من أنباء الراوين عنه، و"شخصيته" ماثلة هنا وهناك على صورة واحدة جلية متفقة لا تعقيد فيها ولا تنافر بين القول والحقيقة.

وقد غلبت هذه الشخصية حتى لا تشابه بينها وبين شاعر آخر في باب من الأبواب ولو تشابه العنوان والموضوع.

فالمتنبي متشائم، والمعري متشائم، ولكن الفرق بين المذهبين في التشاؤم كالفرق بين شخص المتنبي وشخص المعري في المزاج والخليقة والمطلب، وهو دليل على صدق الشخصية الشعرية عند كل من الشاعرين الكبيرين.

فالمعري متشائم لأنه حكيم يتدبر أحوال الخلق ويرثي لما هم فيه من الجهالة والشقاء لغير مأرب يريده إلا التأمل والحكمة.

والمتنبي متشائم لأنه صاحب رجاء خاب في الناس على غير انتظار، ولو لم يخب هذا الرجاء لما كان من المتشائمين.

والمعري ينظر إلى الناس في جميع الأزمان والأجيال لأنه يطلب المعرفة والعلم بالنفس الإنسانية.

والمتنبي ينظر إلى الناس في عصره ولا يعمم الحكم على الناس جميعاً إلا لما أصابه من زمانه وأهل زمانه، وذلك هو الفرق بين من يدرس الإنسان لتحقيق بحث ومن يدرس الإنسان لتحقيق أمل، أو ذلك هو الفرق بين الحكمين المتشائمين والمذهبين المتباعدين جد التباعد على تقارب الكلمات والأسماء.

ولهذا يقول المعري:

كم وعظ الواعظون منا وقام في الأرض أنبياء

وانصرفوا والبلاء باق ولم يزل داؤك العياء

حكم جرى للمليك فينا ونحن "في الأصل" أغبياء

أي نحن "بني الإنسان" أجمعين، وهو منهم، كما صرح في موضع آخر حيث قال:

كلاب تغاوت أو تعاوت لجيفة

وأحسبني أصبحت ألأمها كلبا

أو قال:

بـــني الـــدهر مهـــلاً إن ذممـــت فعـــالكم

فـــــإني بنفســـــي لا محالـــــة ابـــــدأ

أما المتنبي فمعظم تشاؤمه بل تشاؤمه كله في جوهره من قبيل قوله:

أود مـــــن الأيـــــام مـــــا لا تـــــوده

وأشـــكو إليهـــا بيننـــا وهـــي جنـــده

أو من قبيل قوله:

أريـــد مـــن زمـــني "ذا" أن يـــبلغني

مـــا لـــيس يبلغـــه مـــن نفســـه الـــزمن

أو قوله:

وإنمـــا نحـــن في جيـــل سواســـية

شـــر علـــى الحـــر مـــن ســـقم علـــى بـــدن

حـــولي بكـــل مكـــان مـــنهم خلـــق

تخطـــي إذا جئـــت في اســـتفهامها بمـــن

لا أقـــــترى بلـــــداً إلا علـــــى غـــــرر

ولا أمـــــر بخلـــــق غـــــير مضـــــطغن

ولا أعاشـــــر مـــــن أملاكهـــــم ملكـــــا

إلا أحـــــق بضـــــرب الـــــرأس مـــــن وثـــــن

إنـــــي لأعـــــذرهم ممـــــا أعـــــنفهم

حتـــــى أعنـــــف نفســـــي فـــــيهم، وأنـــــى

أو قوله:

وقـــــت يضـــــيع وعمـــــر ليـــــت مدتـــــه

في غـــــير أمتـــــه مـــــن ســـــالف الأمـــــم

أتـــــى الزمـــــان بنـــــوه في شـــــبيبته

فســـــرهم وأتينـــــاه علـــــى الهـــــرم

أو قوله:

ومـــــن عـــــرف "الأيـــــام" معـــــرفتي بهـــــا

وبالنـــــاس روى رمحـــــه غـــــير راحـــــم

فهو يتشاءم لعلة عارضة وهي أن زمانه وأهل زمانه لا ينيلونه ما ينشده من الجاه. ومن هنا كان الذنب عنده ذنب جيله ولا شأن له فيه. أما المعري فكان أصيلاً في تشاؤمه لا يعيب أبناء جيله خاصة إلا لأنهم جزء من الناس أجمعين منذ كان آدم إلى أبد الآبدين. ولعل المتنبي لو نظر إلى الإنسان هذه النظرة لخرج من التشاؤم إلى التفاؤل، لأن رجاءه أن ينال على أيديهم ما ناله أمثاله ومن هم دونه في اعتقاده، دليل على أنه يرى الشأن فيهم أن يعدلوا ويعترفوا بالفضل ويعطوا ذا الحق حقه، ولو كان متشائماً بطبعه لما عجب لفساد طباعهم وحاجة المرء بينهم إلى الدسّ والخداع والحيلة وإرضاء اللبانات والشهوات، وما من رجل يعتقد أنه صاحب حق ويعجب لفواته إلا وهو أقرب إلى التفاؤل منه إلى التشاؤم.

***

وهذه الشخصية ظاهرة في شعر المتنبي كله ظهورها في حكمته وتشاؤمه، ونعني بها شخصية الطامع المغامر المعتد بنفسه: فهو يتغزل كما يفخر ويصف كما يشكو أو يتهكم، وأعجب من هذا أنه يمدح أبطاله على هذا النحو، فيقول وهو في معرض العتاب والاسترضاء لسيف الدولة:

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا

بأنني خير من تسعى به قدم

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي

وأسمعت كلماتي من به صمم

إلى أن يقول:

الخيل والليل والبيداء تعرفني

والسيف والرمح والقرطاس والقلم

والعادة في المدح بله الاسترضاء أن يتضاءل المادح ليرفع من قدر الممدوح، ولكن "لكل امرئ من دهره ما تعود" كما قال.

ويرى بعض الناقدين تناقضاً بين طموح المتنبي وتعاظمه وبين طلب النوال من الأمراء والبخل الشديد الذي شاع عنه، ولا تناقض بين الحالتين كما قد يلوح لنا الآن، لأن نوال الأمراء كان حقاً للشاعر في ذلك العصر لولاه لما استطاع الشعراء الحياة، ومع هذا لم يكن المتنبي يبتذل حقه في مواقف المدح ولم ينزل إلى مدح كل طامع في قصيده، ولا رضى لنفسه مع الذين ارتضاهم لمديحه مقاماً دون مقام

الحفاوة والكرامة، فينشدهم الشعر وهو جالس أو يقف لديهم وقفة التجلي والمهابة. ومنهم من كان يتخلى له عن مكانه ويجلس بين يديه في مقام المادح من الممدوح، ومع هذا وذاك لم ينس غضاضة النوال ولم يسكن إلى دوام هذه الحال، لأنه يريد أن يكون مشكوراً لا شاكراً لذوي الدسوت والأموال:

إذا الفضل لم يرفعك عن شكر ناقص

على هبة فالفضل فيمن له الشكر

ولا يغيبن عنا أن الإنسان لن ينكر على نفسه طلب الجاه إذا علم فيها عيباً من العيوب، لأنه يحابيها ويلتمس لها المعاذير ولا يحاسبها كما يحاسبها خصومه أو أصدقاؤه. فإذا فرضنا أن المتنبي كان بخيلاً فليس من اللازم أن يعترف بالبخل على نفسه، وإذا فرضنا أنه اعترف عليها بهذه الخلة فليس من اللازم أن يلومها ولا يجتهد في تمحل أعذارها، وإذا فرضنا أنه لامها فليس من اللازم ولا من المعقول أن يعاديها ولا يتمنى لها ما يتمناه المحب لحبيبه فضلاً عن نفسه، ولا سيما حين يقارن بينه وبين من بلغوا المجد والإمارة، فيرى فيهم عيوباً شراً من

عيوبه. وقد يتخذ الرجل من الطموح إلى المجد عذراً لاقتناء المال كما قال:

ولا ينحـــل في المجـــد مالـــك كلـــه

فينحـــل مجـــد كـــان بالمـــال عقـــده

فالبخل والفخر لا يتناقضان، بل لا يتناقض البخل وعلو الهمة والمغامرة لما هو معروف من اشتهار كثير من عظماء الدول بالتقتير الشديد الذي يخرج عن حد التدبير، وأن حيلة النفوس في تمليق أصحابها لتجعل العظمة عذراً للنقيصة وتسوغ البخل كأنه ضرورة لا محيص عنها لنجاح المغامر الطموح فيما يتمناه.

***

ولقد سرت شخصية المتنبي في ألفاظه وعباراته فضلاً عن أفكاره ومعانيه. فالولع بالتصغير الذي لوحظ عليه هو عندنا من لوازم مزاجه المتكبر المغيظ من فوات رجائه، وأكثر ما يصغر المتنبي كما لاحظنا في بعض فصولنا حين يهجو مغيظاً أو يستخف متعالياً كما قال في كافور:

أولى اللئـــــام "كـــــويفير" بمعـــــذرة

في كـــل لـــؤم وبعـــض العـــذر تفنيـــد

أو كما قال فيه:

نويبيـــــة لم تـــــدر أن بنيهـــــا النـــــو

يبـــــى دون الله يعبـــــد في مصـــــرا

أو كما قال في الشعراء الذين يزاحمونه:

أفي كـــل يـــوم تحـــت ضـــبني شـــويعر

ضـــعيف يقـــاويني قصـــير يطـــاول

وكل تصغيره من هذا القبيل هو تصغير من يضيق صبره بالسخط والأنفة والكبرياء فيعاف أن يذكر الأشياء والناس إلا بأهون ما يستطيع في صيغة لفظه بعد التهوين في مدلول هجائه ومعناه.

***

ولولا أننا لا نريد أن نكرر ما أسلفنا في غير هذا المقال لأكثرنا من الشواهد على المطابقة بين شخصيته وكلامه من غزله ووصفه وأمثاله، ولكن الإشارة هنا تغني في المراجعة، وما على القارئ إلا أن يتناول ديوان المتنبي ويفتحه على ما شاء من صفحة أو ببيت فلن يجد بيتاً واحداً يستغربه من تلك

الشخصية كما عرفناها في تاريخه وفي جملة كلامه، فهو حيث قلبت من حكمته أو فخره أو غزله أو رثائه هو هو المغامر المعتد بفضله الفاشل في أمله الساخط على زمنه الذي لا ينسى شأنه، حتى حين يعزى المحزون في مصابه. وما ظنك برجل يعزى محزوناً في فقيد فيقول له:

لا يحـــــزن الله الأمـــــير فـــــإنني
لآخـــــذ مـــــن حالاتـــــه بنصـــــيب

بل ما ظنك برجل ينطق حصانه كما قال:

يقـــــول بشـــــعب بـــــوان حصـــــاني
أعـــــن هـــــذا يســـــار إلى الطعـــــان
أبـــــوكم آدم ســـــن المعاصـــــي
وعلمكـــــم مفارقـــــة الجنـــــان

لكأنما كان حصان المتنبي حصاناً متنبياً يخاطب أبناء آدم مدلاً بالحيوانية ناظراً إليهم نظرة الحكيم إلى الحمقى والعليم إلى الجهلاء؟

أفيستطيع هذا الرجل أن ينسى نفسه أو يخفى "شخصيته" أو يكون غير ما كان أو يقول غير ما قال؟

إن الناقدين لا يوجبون على الشاعر أن يكون إنساناً خيراً مما هو لتتم له ملكة الشاعرية ولكنهم يوجبون عليه أن يكون شعره ترجمان "إنسانه" وصورة حياته، وهكذا كان المتنبي الشاعر حيث عمل وحيث قال. فأحبب ما شئت من خلائقه وابغض ما شئت منها. ولكن بعد أن تلقى ميزان الشعر وتأخذ بميزان الشريعة أو ميزان يوم القيامة!.

عباس محمود العقاد

بعد ألف عام

سرّ الاحتفال بالمتنبي

بقلم الدكتور محمد حسين هيكل بك

يعنى عالم اللغة العربية هذا العام بإقامة حفلات لمناسبة انقضاء ألف عام على وفاة أبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبي. أقيمت أولى هذه الحفلات بدار الجامعة الأمريكية ببيروت في اليوم الثاني من شهر يونيو سنة 1935 بناء على دعوة جمعية العروة الوثقى بالجامعة المذكورة وهذه الجمعية تضم الشباب الذي يتكلم العربية من المنتسبين إلى الجامعة المذكورة. وينتظر أن تقام حفلات لهذه المناسبة بحلب في أغسطس سنة 1935. وطبيعي أن تذكر حلب الشاعر الذي خلد ذكرها وخلد أميرها سيف الدولة بمدائحه العظيمة. وربما أقيمت حفلة أخرى ببغداد وحفلة رابعة بالقاهرة. فقد أقام المتنبي بمصر زمناً مدح فيه كافوراً الأخشيدي طمعاً في

أن يوليه ولاية يجلس على عرشها مجلس سيف الدولة على عرش حلب. وانقلب المتنبي عن مصر حين أخلفه كافور وعده فذهب إلى بغداد ثم إلى شيراز حيث مدح عضد الدولة. فلا عجب أن أقامت مصر وبغداد حفلات كالتي أقامتها بيروت والتي تقيمها حلب تذكر بها هذا الشاعر العربي الذي ملأ الدنيا دوياً منذ حياته. ولا عجب أن يتحدث أبناء اللغة العربية عن شاعر ترك للّغة العربية ميراثاً عظيماً.

على أن من حق كل إنسان أن يسأل: أفتقام حفلات المتنبي هذه في الشام والعراق ومصر تقديراً للأثر الشعري الذي تركه المتنبي في الحياة؟ أم هي تقام تقليداً للحفلات التي أقيمت لمناسبة انقضاء.

وهل تقام حفلات المتنبي هذه إعجاباً بشعر المتنبي وفنه فيه؟ أم تدفع إلى إقامتها اعتبارات ليس الفن وليس الشعر أقواها في حفز النفوس إلى إقامتها؟ وما هي هذه الدوافع التي تجد في شعر المتنبي ما يشجعها على الظهور للاحتفاء بشاعر من شعراء العربية اتصلت الخصومة في شأن شعره ومبلغ ما يسمو إليه من مراقي الفن وما يهبط إليه من دركاته منذ حياته إلى عصرنا الحاضر، بينما من شعراء العربية من

انقضى على وفاتهم أكثر من ألف عام فلم يفكر أحد في الاحتفاء بهم مع أن ما خلفوا من التراث الشعري لا يقل روعة وجلالاً عما خلف المتنبي؟

أما أن الاحتفال بانقضاء ألف عام على المتنبي إنما هو مجرد تقليد للاحتفال بالفردوسي فذلك ما لا يصدقه الواقع. فالتفكير في المتنبي والاحتفال بانقضاء ألف سنة على وفاته تفكير قديم يرجع إلى عدة أعوام. والاحتفال بانقضاء ألف عام على منشئات أو رجال تركوا على الزمان أثراً، هو اليوم بعض ما يجول بالخواطر. وها نحن أولاء عما قريب سنشهد الاحتفال باليوبيل الألفي للأزهر. وسواء أكانت هذه الفكرة قد نبتت أول ما نبتت للاحتفال بالأزهر أو بالمتنبي أو بالفردوسي فهي فكرة طبيعية أجدر بأن تساور النفوس من الاحتفاء باليوبيل الفضي أو باليوبيل الذهبي لحي من الأحياء أو عمل من الأعمال، وأجدر بأن تساور النفوس من الاحتفال بانقضاء مائة عام على مولد عظيم من العظماء أو على وفاته. فالعظيم الذي صمدت عظمته للزمان ألف سنة تباعاً جدير حقاً بأن يذكر وبأن تخلد ذكراه. وهو كذلك ما مست هذه الذكرى نفوس الأحياء على نحو يثير فيها عواطف تحدث بها هذا العظيم وخلدها على الدهر.

وهـذا هـو في رأينـا سـر الاحتفـاء بـالمتنبي دون غـيره مـن شعراء العرب الذين انقضى على وفاتهم ألف عام. فليس ريب في أن من هؤلاء الشعراء من يضارع المتنبي قوة ومن يفوقه رقة ومـن يعلـو فنـه علـى فـن المتـنبي علـواً كـبيراً. وكـثيرون مـن الضـليعين في الشـعر وفنونـه يفضـلون أبـا نـواس على المتنبي في سمو خياله ورقة تعبيره وحلاوة أسلوبه وعذوبته الموسيقية في شعره. ومـن النـاس مـن يفضـل ابـن الرومـي على المتنبي. لكـن هـؤلاء جميعـاً لا يعـبر شـعرهم عمـا يجـول بخـواطر الـذين يتكلمون بالعربية اليوم كما يعبر عنها المتنبي هؤلاء يصفون الطبيعة ويصفون الحياة ويصورون متعها ويستشفون حكمتها مـن خـلال هـذه المتـع. وهـذا كلـه لا يتصـل بعاطفـة الـذين يتكلمـون العربيـة مـن أبنـاء اليـوم. إنمـا يتصـل بعـاطفتهم هـذا الألم لفقد حريتهم ولضياع استقلال بلادهم. ويتصل بعاطفتهم هذا الاعتزاز بالنفس اعتزازاً هو السبيل لاقتناص الحرية من جديد ولتحقيق استقلال البلاد العربية المختلفة. ولم يعبر أحد عن هذه المعاني بمثل ما عبر المتنبي من قوة. ولم يكن عصر اضطربت فيه أمور البلاد العربية اضطراباً يكاد يشبه ما هو حادث اليوم كعصر المتنبي. فلا غرو أن استفز شعر المتنبي همة الشباب. ولا عجب أن سارع الشباب الذي يتكلم العربية

للاحتفاء بذكرى المتنبي بمناسبة انقضاء ألف عام على وفاته
وكيف لا يستفز الشباب مثل قوله:

عـــش عزيـــزاً أو مـــت وأنـــت كـــريم
بـــين طعـــن القنـــا وخفـــق البنـــود
فـــرؤوس الرمـــاح أذهـــب للغـــي
ظ وأشـــفى لغـــل صـــدر الحقـــود
لا كمـــا قـــد حييـــت غـــير حميـــد
وإذا مـــت مـــت غـــير فقيـــد
فاطلـــب العـــز في لظـــى ودع الـــذ
ل ولـــو كـــان في جنـــان الخلـــود
يقتـــل العـــاجز الجبـــان وقـــد يـــع
جـــزر عـــن قطـــع بخنـــق المولـــود
ويـــوقى الفتـــى المخـــش وقـــد خـــو
ض في مـــاء لبـــة الصـــنديد

وكيف لا يستفز الشباب في وقتنا الحاضر وقوله:

مـــن أطـــاق التمـــاس شـــيء غلابـــا

واغتصـــــابا لم يلتمســـــه ســـــؤالا

وهذا المعنى كثير الورود في شعر أبي الطيب. ويقترن به من تصوير البطولة وحب الاستشهاد في سبيل العزة والكرامة ما يهز عواطف هؤلاء الذين تفتحت عيونهم على الحياة فألفوا بلادهم مهيضة الجناح خاضعة للنير الأجنبي خضوعاً يسلبها عزتها وكرامتها. والشباب ولوع بالقول الفخم وما يدل عليه من طموح إلى العلياء، وهو أشد بالقول الفخم ولوعاً كلما حالت الحوائل بينه وبين العمل الإيجابي المثمر الذي يحقق غاياته. فهو يجد في هذا القول عزاء عن حرمانه من أسباب العزة والأنفة ، وحافزاً إلى التماس هذه الأسباب ومذكراً بها. والذكرى نافعة أبداً. وكلما بعدت هذه الذكرى في أطواء الماضي كانت أفعل في النفوس أثراً. فإذا تغنى أجدادنا من ألف سنة بمعنى من المعاني وقصرنا نحن دون إدراكه فعار علينا إذا لم نحمل على أنفسنا ولم نبذل غاية جهدنا لتحقيقه. فإن بلغنا الغاية من قصدنا فذاك. وإن لم نبلغها فلنا من العذر أن حالت الأقدار بيننا وبين ما نريد.

هذا هو الدافع الأقوى لاحتفاء أبناء العربية اليوم بمرور ألف عام على وفاة المتنبي، وهو كما ترى حافز نبيل غاية النبل. ويتصل به حافز من نوعه ليس أقل منه نبلاً. فقد نسيت هذه البلاد التي تتكلم العربية في عصورها الأخيرة تراثها العظيم واتجهت بكل جهودها إلى ناحية الغرب تلتمس منه أسباب الرقي من العلم والأدب والفن. وبلغت من ذلك حتى خيل إلى أبنائها أن ما كان لها من علم وأدب وفن لم يعد صالحاً للحياة في هذا العصر، بل لم يعد صالحاً لأن يكون أساس بعث وإحياء كما كانت الآداب اليونانية والفلسفة اليونانية أساس البعث والإحياء في الغرب من أربعة قرون خلت. فإذا كان شاعرنا المتنبي لا يقف عند الإشادة بمبادئ العزة والكرامة والحرية بل يضرب بيده في أحشاء الحياة يلتمس حكمتها فتخرج يده مملوءة من حكمة الحياة الخالدة التي لا تفنى وإن تقادمت الدهور، كان في ذلك دليلاً على أن لنا من هذا التراث العظيم في الفن والأدب ما ينهض أساساً لبعث البلاد العربية كي تقف جنباً إلى جنب مع الغرب دون أن تكون عالة عليه مقلدة إياه فيما يثمر من فن وعلم وأدب. والحق أن المتنبي قد غاص في لج بحر الحياة فاستخرج منه درر الحكمة الخالدة التي لا تبلى. وهو قد جلا هذه الحكمة في فن قوى غاية القوة. استمع إليه إذ يقول:

ذل مـــــن يغـــــبط الـــــذليل بعـــــيش

رب عـــــيش أخـــــف منـــــه الحمـــــام

مـــــن يهـــــن يســـــهل الهـــــوان عليـــــه

مـــــا لجـــــرح بميـــــت إيـــــلام

وإذ يقول:

يهـــــون علينـــــا أن تصـــــاب جســـــومنا

وتســـــلم أعـــــراض لنـــــا وعقـــــول

وإذا يقول:

ذو العقـــــل يشـــــقى في النعـــــيم بعقلـــــه

وأخـــــو الجهالـــــة في الشـــــقاوة يـــــنعم

وغير هذه من الحكم التي جرت مجرى الأمثال كثير جمعه الذين درسوا أبا الطيب وشعره. والناس مشوقون للحكمة يلتمسونها في الأمثال وفي الشعر وفي كل كلام جميل حسن المدخل إلى النفس. فالحكمة رحيق تجاريب الأجيال والميراث الذي يخلفه الناس بعضهم لبعض جيلاً بعد جيل.

واعتبار ثالث قام بنفس كثيرين ممن احتفوا بأبي الطيب. ذلك الاعتبار هو الفكرة العربية في صورتها المقبولة الممكنة. فالفكرة العربية تجول بخواطر البعض على أنها الوحدة السياسية للذين يتكلمون اللغة العربية، والذين كانوا إلى ما قبل الحرب يستظلون بعلم الدولة العثمانية والخلافة الإسلامية. والوحدة السياسية لطائفة من الأمم تجمعها جامعة ليست بدعاً. مثلها مثل الوحدة السياسية للأمم المتجاورة تجمعها جامعة الجنس أو الدين. على أن هذه الوحدة غير ميسورة في ظروف العالم اليوم. ولا يدري أحد إن أمكن تحقيقها في الأجيال القريبة. لكن جامعة اللغة تخلق من غير شك اتصالاً في الثقافة قد يصل مع الزمن إلى وحدة هذه الثقافة. وهو من غير شك يقرب بين الأمم التي تتكلم اللغة الواحدة ويقوي عناصر الثقافة المشتركة بينها بتشابك العناصر التي تشترك في إحياء هذه الثقافة وفي توجيهها والإضافة إليها إضافة تصل بين ماضيها وحاضرها بأوثق الصلات.

ولقد بدا هذا الاعتبار الثالث واضحاً أشد الوضوح في الاحتفال الألفي الذي أقامته جمعية العروة الوثقى بالجامعة الأمريكية للمتنبي. كانت العربية والعروبة أنشودة ذلك المجتمع والأغنية الجارية فيه على كل لسان. ولا عجب

والفكرة العربية تتحرك اليوم في نفوس أبناء سوريا ولبنان وفلسطين بأقوى مما تتحرك في نفوس غيرهم من الناحية السياسية. ولا عجب والإحياء للتراث العربي فكرة تجول بخواطر الذين يتكلمون اللغة العربية جميعاً فيما عدا أولئك الذين يريدون أن يغفلوا ماضيهم وأن يقلدوا الغرب وحضارته وفنونه وآدابه تقليداً ينسى أبناء هذه الأمم أنها ذات ماض مجيد وأنها أظلت العالم بحضارتها عصوراً مديدة، وبخير مما تظل حضارة أوروبا العالم اليوم به. هؤلاء لا رجاء في نجاح فكرتهم وإن استندت إلى القوى الحاكمة في الشرق اليوم. ومهما يكن الاتصال بين أمم العالم أمراً محتوماً لا مفر منه، حتى لا معدي للشرق اليوم أن يأخذ كثيراً عن الغرب، فالاتصال بين ماضي الأمم وحاضرها أمر محتوم هو الآخر لا مفر منه. وذلك هو ما جعل الاحتفاء بالمتنبي وما يجعل كل عمل يقصد به إلى إحياء ماضينا على أيّة صورة من صور الإحياء يقابل بالإكبار والتأييد.

محمد حسين هيكل

***

❖لما جاء ابن جنى في شرحه ديوان أبي الطيب إلى قوله في ممدوحه:

قـــد شـــرف اللّه أرضـــاً أنـــت ســـاكنها

وشـــــرف النـــــاس إذ ســـــواك إنســـــانا

قال: لا يعجبني قوله سواك لأنه لا يليق بشرف ألفاظه. ولو قال "أنشاك" لكان أليق قال العروضي: سبحان اللّه أتليق هذه اللفظة بشرف القرآن، ولا تليق بلفظ المتنبي؟ قال تعالى: "الذي خلق فسوى" وقال: "فسواك فعدلك" وقال: "ثم سواك رجلاً". قال ابن فرجة: "قرأت على أبي العلاء، ومنزلته في الشعر ما قد علمه من كان ذا أدب. فقلت له يوماً في كلمة: ما ضر أبا الطيب لو قال مكان هذه الكلمة كلمة أخرى أوردتها، فأبان لي عوارها. ثم قال: "لا تظن أنك تقدر على إبدال كلمة واحدة من شعره بما هو خير منها فجرب إن كنت مرتاباً. وهأنذا اجرب ذلك منذ زمن فلم أعثر بكلمة لو أبدلتها بأخرى كانت أليق بمكانها. وليجرب من لم يصدق يجد الأمر على ما أقول"!...

في ذكرى المتنبي

من شاعر إلى شاعر

بقلم الأستاذ احمد محرم

أنظـــــر إلى الـــــدّنيا عَليـــــكَ ترفْـــــرف
واسمـــــعْ شـــــعوبك في الممالـــــك تهتْـــــفُ
ضـــــجّوا بـــــذكرك، فالقياصـــــر خشّـــــعٌ
بـــــين المواكـــــب، والأرائـــــك رجّـــــف
تقـــــف العواصـــــف دونَ عرشـــــك ركّـــــداً
والـــــدّهر يرْمـــــي بـــــالعروش ويعصـــــف
ويظـــــل تاجـــــك مالـــــه مـــــن خـــــاطفٍ
والنـــــاس والتّيجـــــان حوْلـــــك تخطـــــف
ملـــــك البيـــــان إليـــــك فـــــوّضَ أمـــــره
فـــــاحكم فأنـــــت المالـــــك المتصـــــرّف

تعـــب الخلـــود ومـــا تعبـــتَ وإنـــني
لأرى الخلـــودَ يضـــيق عنـــك ويضـــعف
أنـــت ابتـــدعْتَ الشـــعر، مـــا لجديـــده
مثـــلٌ يعـــــدُّ، ولا طـــــرازٌ يعْـــــرَف
تلقـــى علـــى المَعْنـــى المحجّـــب نظْـــرةً
فـــإذا الرّوائـــع وضَّـــح تتكشّـــف
الحكمـــة الغَـــرّاء حـــفّ جلاَلهـــا
ســـورٌ عليـــهِ مـــن البراعـــةِ زخْـــرف
والمـــدح يسْـــتهوي الرجـــال، فمحجـــم
يَلْقـــى الفـــوارس، أو بخيـــل يســـرف
والوَصـــف تشـــربه النّفـــوس وتنتشـــي
مـــن حســـنه الأشـــياء ســـاعة توصـــف
والفخْـــر يـــأنف أن تقـــيم بمنـــزل
حتـــى يكـــون لـــك المقـــام الأَشْـــرف

شِـــعْر نَظمـــت بـــه الجمـــالَ مصـــوّراً

والـــــنفس تولـــــع بالجمـــــال وتُشـــــغف

أبقـــى "لســـيف الدّولـــة" الشَّـــرفَ الـــذي

تـــــرَكَ السُّـــــيوفَ مشـــــوقة تتشـــــوف

شـــــرف تخلـــــفَ بعـــــده، فكأنـــــه

بـــــاق علـــــى طـــــولِ المـــــدَى متخلـــــف

نجّـــــاه مـــــن غـــــولِ الفنـــــاء، فهـــــذه

دنيـــــاهُ مونقـــــة تـــــرف وتنطـــــف

إنـــــزل بســـــاحته، فتلـــــك ثمارهـــــا

تجنـــــى بأيـــــدي الـــــرّاغبينَ وتقطـــــف

الملـــــك أفْـــــيح، والجنـــــود مغـــــيرة

والخيـــــل تصـــــهل، والقواضـــــب ترْعـــــف

والفـــــتح غـــــادٍ في اللـــــواء ورائـــــح

لا أنـــــتَ تخطئـــــه، ولا هـــــو يخلـــــف

لمّـــا رضـــيت عـــن "السّـــواد" جعلتـــه

نـــوراً يغـــار النّـــور منـــه فيكســـف

ولقـــد رأيتـــك غاضـــباً فـــإذا الـــدُّجى

متـــــبرِّم بســـــوادِهِ مســـــتتكف

"كـــافور" مـــن حنـــق عليـــك وإحنـــة

يهـــذى بـــذكرك ناقمـــاً يتـــأفف

أوردتـــه العـــذب الفـــرات، فمـــا ارتـــوى

حتـــى أحـــاط بـــه الإجـــاج المتلـــف

لم تـــرض يومـــاً في حياتـــك موقفـــاً

يعلـــوه في الـــدُّنيا لغـــيرك موقـــف

"الأبـــيض الطمّـــاح" لم تحفـــلْ بـــه

لمـــا رمـــى[1] و"الأســـود المتعسِّـــف"

---

[1] المراد به سيف الدولة ورميه بالدواة في وجه المتنبي وهو ينشده قصيدته:
"واحر قلباه ممن قلبه شيم"

كنـــت العزيـــز الحـــر يكـــرم نفســـه

ويعـــــاف منزلـــــة الـــــذليل ويـــــأنف

رمـــــت "الولايـــــة" بـــــالقريض، وإنـــــه

لـــك في النفـــوس ولايـــة مـــا تصـــرف

"المضـــحكات بمصـــر"[1] حيـــث رأيتهـــا

وأرى "الثعالـــب"[2] مثـــل عهـــدك تزحـــف

نظمـــت بـــدائعك المواكـــب فخمـــة

ومشـــت تغـــني في الـــبلاد وتعـــزف

اليـــوم تنصـــفك الـــدّهور ومالنـــا

غـــير الـــدهور لـــدى الحكومـــة منصـــفُ

أحمد محرم

---

[1] إشارة إلى قوله: "وكم ذا بمصر من المضحكات" البيت.

[2] إشارة إلى قوله من قصيدة في كافور: "نامت نواطير مصر عن ثعالبها" البيت.

فلسفة أبي الطيب

هلْ كانَ المتنبي فيلسُوفاً؟

بقلم الأستاذ أحمد أمين

يخطئ من يظن أن لأبي الطيب فلسفة تشمل العالم، وتحل مشاكل الكون، فتلك بالفيلسوف أشبه، وربما قارب هذه المنزلة أبو العلاء لا أبو الطيب، فلئن كان أبو العلاء فيلسوفاً يتشاعر فإن أبا الطيب شاعر يتفلسف، إنما لأبي الطيب خطرات في الحياة من هنا ومن هنا لا يجمعها جامعة إلا نفس أبي الطيب والمحيط الذي يسبح فيه ويتشرب منه.

كذلك يخطئ من ظن أن أبا الطيب عمد إلى ما أثر من الحكم عن أفلاطون وأرسطو وأبيقور وأمثالهم من فلاسفة اليونان، فأخذها ونظمها، ولم يكن له في ذلك إلا أن حول النثر شعراً، كما رأى ذلك من تتبعوا سرقات المتنبي وأفرطوا في اتهامه، فأخذوا يبحثون في كل حكمة نطق بها ويردونها

إلى قائلها من هؤلاء الفلاسفة. فلسنا نرى هذا الرأي، فإن كان قد وصل إلى أبي الطيب قليل من حكم اليونان ونظمها فإن أكثر حكمة منبعها نفسه وتجاربه وإلهامه لا الفلسفة اليونانية وحكمها، ذلك لأن الحكم ليست وقفاً على الفلاسفة ولا على من تبحروا في العلوم والمعارف، إنما هي قدر مشاع بين الناس يستطيعها العامة كما يستطيعها الخاصة، ونحن نرى فيما بيننا أن بعض العامة ومن لم يأخذوا بحظ من علم قد يستطيعون من ضرب الأمثال والنطق بالحكم الصائبة ما لا يستطيعه الفيلسوف والعالم المتبحر، وهذا الذي بين أيدينا من أمثال إنما هو من نتاج عامة الشعب أكثر مما هو من نتاج الفلاسفة. وكلنا رأى بعض عجائز النساء ممن لم تقرأ في كتاب أو تخط بيمينها حرفاً تنطق بالحكمة تلو الحكمة، فيقف أمامها الفيلسوف حائراً دهشاً يعجز عن مثلها ويحار في تفسيرها، ومرجع ذلك إلى ينبوعين وهما التجربة والإلهام، فإذا اجتمعا في امرئ تفجرت منه الحكمة ولو لم يتعلم ويتفلسف، فكيف إذا اجتمعا لامرئ كأبي الطيب ملئ قلبه شعوراً وملئت حياته تجارب وكان أمير البيان وملك الفصاحة؟ فنحن إذا التمسنا له مثالاً في حكمه فلسنا نجده في أفلاطون وأرسطو وأبيقور، وإنما نجده في زهير بن

أبي سلمى وقد نطق في الجاهلية بالحكم الرائعة مما دلته عليه تجاربه وأوحى إليها إلهامه، كما نجده في شعر أبي العتاهية وقد ملأ عالمه حكماً وأمثالاً خالدة على الدهر. وكل ما بين أبي الطيب وهؤلاء الحكماء من فروق يرجع إلى أشياء: المحيط الذي يحيط بكل شاعر، وقدرة نفس الشاعر على تشرب محيطه، والقدرة البيانية على أداء مشاعره. لقد ألم زهير من الحرب ورأى ويلاتها فشعر فيها ونطق بالحكم الرائعة يصف شرورها ومصائبها، وفشل أبو العتاهية في الحياة فزهد وملك الزهد عليه نفسه فملأ به ديوانه، وكان لأبي الطيب موقف غير هذين فاختلفت حكمه عنهما وإن نبعت من منبعهما، كما سنبينه.

ودليلنا على ذلك أن أبا الطيب فيما نعلم لم يثقف ثقافة فلسفية إنما تثقف ثقافة عربية خالصة، قرأ بعض دواوين الشعراء ولقي كثيراً من علماء الأدب واللغة كالزجاج وابن السراج والأخفش وابن دريد، وكل هؤلاء لا شأن لهم بالفلسفة ومناحيها.

وما لنا ولهذا كله، فإننا لو رجعنا إلى حكمه لوجدناها منطبقة تمام الانطباق على محيطه ونفسه ليس فيها أثر من

تقليد ولا شية من تصنع، فهو ينظم ما يجول في نفسه وما دلته عليه تجاربه لا ما نقل إليه من حكم غيره إلا في القليل النادر.

ونحن إذا أردنا أن نجمل نفسه ومحيطه قلنا: إنه بدأ حياته حياة فتوة وفروسية، تعرفه الخيل والليل والبيداء، ويحب الحرب والنزال، ويشتهي الطعن والقتال. قيل له وهو في المكتب ما أحسن وفرتك؟ فقال:

لا تحسن الوفرة[1] حتى ترى
منشورة الضفرين يوم القتال
على فتى معتقل صعدة
يعلها من كل وافي السبال

كما نشأ طموحاً إلى أقصى حد في الطموح، يعتد بنفسه كل الاعتداد، ولا يرى له في الوجود نداً ولا مثيلاً. قال في صباه:

أمط عنك تشبيهي بما وكأنه
فما أحد فوقي ولا أحد مثلي

---

[1] الوفرة الشعر المجتمع على الرأس.

قومه من خير العرب بيتاً ومع هذا يجب أن يعتز قومه به لا أن يعتز هو بقومه وبيته:

لا بقـــومي شـــرفت بـــل شـــرفوا بـــي
وبنفســـــي فخـــــرت لا بجـــــدودي
وبهـــم فخـــر كـــل مـــن نطـــق الضـــا
د وعـــوذ الجـــاني وغـــوث الطريـــد

إلى جانب هذا الاعتزاز بالنفس استصغار للناس ونفوسهم وشؤونهم:

ودهـــــر ناســـــه نـــــاس صـــــغار
وإن كانـــت لهـــم جثـــث ضـــخام
ومـــا أنـــا مـــنهم بـــالعيش فـــيهم
ولكـــن معـــدن الـــذهب الرغـــام

امتلأت نفسه بهذه العقيدة حتى في صباه فوضع لنفسه هذا المنطق الساذج البسيط: "إذا كنت خير الناس فلم لا أكون نبيهم أو على الأقل ملكهم" فبدأ ينفذ برنامجه في سهولة ويسر ظاناً وهو فتى غرير إن الدنيا تحكم بمثل هذا

المنطق البسيط. ولم يعلم بعد أن منطق الدنيا أعقد من هذا بل أن الملك منطق يحكم الدنيا أكثر مما يحكمها المنطق. نعم إنه سيلاقي في هذا شداداً وصعاباً ولكن لا بأس فهو مسلح بكل ما يحتاج إليه ذلك من سلاح:

ودهر ناسه ناس صغار وإن كانت لهم جثث ضخام

وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام

ولكن حوادث الدهر علمته شيئاً فشيئاً إن الزمان أكبر من همته، وأنه لا يكفي أن يكون خير الناس ليكون نبي الناس أو ملك الناس. ومن أجل هذا تدرجت مطامحه وأخذت في النقصان فقد بدأ يطلب النبوة، فلما فشل فيها بدأ يطلب الملك فلما فشل فيه بدأ يطلب ولاية أو إقليماً في مصر ففشل في ذلك أيضاً، فأخذ يعتب على الزمان ويذمه ويلعنه.

بدأ النبوة فقال:

مـــا مقـــامي بـــأرض نخلـــة إلا

كمقـــام "المســـيح" بـــين اليهـــود

أنـــا تـــرب النـــدى ورب القـــوافي

وسمـــام العـــدى وغـــيظ الحســـود

أنـــــا في أمـــــة تـــــداركها الله

غريـــــب "كصـــــالح" في ثمـــــود

ثم صدمه الزمان بالأسر والحبس فعدل عن النبوة إلى طلب الملك فأخذ في شعره يحقر ملوك زمانه ويقيسهم بنفسه فلا يرى لهم فضلاً عليه وله عليهم كل الفضل.

ويقول:

ســـادات كـــل أنـــاس مـــن نفوســـهم

وســـادة المســـلمين الأعبـــد القـــزم

وإذن فليكن هو ملكاً وقد طوف بالبلاد يتلمس السبيل لتحقيق مأربه ونيل مطلبه ويقول في ذلك تلميحاً لا تصريحاً:

يقولـــون لـــي مـــا أنـــت في كـــل بلـــدة

ومـــا تبتغـــي؟ مـــا أبتغـــي جـــل أن يســـمى

إذا قـــل عزمـــي عـــن مـــدى خـــوف بعـــده

فأبعـــد شـــيء ممكـــن لم يجـــد عزمـــا

وإنـــي لمـــن قـــوم كـــأن نفوســـهم

بهـــا أنـــف أن تســـكن اللحـــم والعظمـــا

ثم رأى أن الزمان لا يسعفه إلى ما طلب ولا يعينه على ما أمل فرحل إلى مصر وطلب من كافور أن ينيله ولاية فأغدق عليه ذهباً فقال:

ومـــا رغـــبتي في عســـجد أســـتفيده

ولكنهـــــا في مفخـــــر أســـــتجده

وقال:

فارم بي ما أردت مني فإني أسد القلب آدمي الرواء

وفؤادي من الملوك وإن كا ن لساني يرى من الشعراء

ثم صرح بعد الكناية فقال:

إذا لم تـــنط بـــي ضـــيعة أو ولايـــة

فجـــودك يكســـوني وشـــغلك يســـلب

حتى ولا هذه استطاع أن ينالها وصدمته الحقيقة فاعترف بأنه "يود من الأيام ما لا توده" وقد كان في صباه يقول:

ولـــو بـــرز الزمـــان إلى شخصـــاً

لخضـــب شـــعر مفرقـــه حســـامي

ومــــــا بلغــــــت مشـــــيئتها الليـــــــالي

ولا ســــــــارت وفي يـــــــدها زمـــــــامي

إذا امـــــتلأت عيــــون الخيـــــل منّـــــي

فويــــــــــل في التــــــــيقظ والمنـــــــــام

عذبته الدنيا فجعلت نفسه نفس ملك، وهمته همة ملك، وشعره ملك الشعر أو على الأقل فيما يعتقد هو، ثم جعلته فقيراً لا يملك من الدنيا شيئاً، ولا يرث، من آبائه مالاً ولا ملكاً ولا جاهاً، وكان يأمل في صباه أن تتحقق نبوته فالنبوة لا تحتاج إلى مال فلما يئس طلب الملك والملك يحتاج إلى مال فطلبه بشعره ولكن لم تذل نفسه كما ذلت الشعراء فكان يرى أنه يعطى لممدوحيه أكثر مما يأخذ منهم، فهو يمنحهم شعراً خالداً وهم يمنحونه عرضاً زائلاً، وكان يتجلى ذلك في عتابه أو هجائه يوم يعتب على ممدوحه أو يهجوه، يقول لسيف الدولة وهو يعاتبه:

ســـــيعلم الجمــــع ممـــن ضـــم مجلســـنا

بـــــأنني خـــير مـــن تســـعى بـــه قـــدم

أنـــا الـــذي نظـــر الأعمـــى إلى أدبـــي

وأسمعـــت كلمـــاتي مـــن بـــه صـــمم

فتباً لهذا الزمان الذي وضعه هذا الوضع، منحه صفة الملوك ولم يجعله ملكاً، وحرمه المال ولم يحرمه النفس، فلم يوائم بين نفسه وحاله يرى أن الناس لو عقلوا لثاروا ولم يرضوا على ما هم فيه من بؤس وشقاء ولملكوا عليهم خيارهم، ولعله يعني نفسه، ولكنهم خاضعون مستسلمون يقيمون على الذل ولا يأنفون من عار.

أما في هذه الدنيا كريم تزول به عن القلب الهموم

أما في هذه الدنيا مكان يسر بأهله الجار المقيم

تشابهت البهائم والعبدى علينا والموالي والصميم

وما أدرى إذا داء حديث أصاب الناس أم داء قديم

اعتداد بالنفس لا إلى حد، وطموح ليس بعده طموح ونقمة على الزمان لأنه لم يسعفه، ونقمة على الناس لأنهم لم يحققوا أمله هذا كله روح فلسفة المتنبي وكل ما قاله من حكم فهو صدى لهذا الوضع وترجمة لهذه الأحداث وتعبير عن شعوره بها.

أوضح ما تنتجه هذه الحال في نفس كنفس المتنبي "فلسفة القوة" وكذلك كان، فالمتنبي قوي في التعبير عن نفسه قوي في الحملة على الناس وعلى الزمان. تتجلى القوة في كل أقواله وفي جميع حالاته. وهذه القوة أكثر ما تكون في سنيه الأولى أيام كان يتنقل في البلاد ويدبر خطته ليحقق أمله. وقد ظل على هذه الحال إلى أن بلغ الرابعة والثلاثين ثم ضعفت بعض الشيء يوم اتصل بسيف الدولة يتبعه حيثما كان ويمدحه في الحل والترحال، وأثر في نفسه فشله عنده فرحل إلى مصر وبها كافور وشتان بين سيف الدولة في عربيته وفروسيته وبين كافور في عجمته وعبوديته. ولكنه الزمان الغادر رماه بأقسى ما لديه حتى جعله مادحاً كافوراً فهو في مدحه يغالب نفسه ويلعب بالألفاظ ليصوغ مدحاً يشبه الذم، فإذا تحرر من ذلك وأخذ في هجائه عادت إليه قوته وكأنه استرد حريته. فهو قوي في نفسه لا يهاب الدهر ولا يكترث لأحداثه:

إن ترمني نكبات الدهر عن كثب

ترم امرءاً غير رعديد ولا نكس

وهو قوى في احتقاره اللذات الوضعية وطموحه إلى أعلى غايات المجد:

وإذا كانـــــت النفـــــوس كبـــــاراً

تعبـــــت في مرادهـــــا الأجســـــام

يأبى أن يضعف نفسه بالغزل والخمر فإنهما يحولان دون المجد:

تمرســـت بالآفـــات حتـــى تركتهـــا

تقـــول أمـــات المـــوت أم ذعـــر الـــذعر

ذر الـــنفس تأخـــذ وســـعها قبـــل بينهـــا

فمفـــترق جـــاران دارهمـــا العمـــر

ولا تحســـبن المجـــد زقـــاً وقينـــة

فمـــا المجـــد إلا الســـيف والفتكـــة البكـــر

وتركـــك في الـــدنيا دويـــاً كأنمـــا

تـــداول سمـــع المـــرء أنملـــه العشـــر

وهو قوي في هجائه فهو إذا رمى أصمى وإذا مس أدمى يطوق من يناله الذم. ويقلده الخزي ويلزمه عاراً لا تمحوه الأيام.

وهو قوي في دعوته للناس أن يثوروا ويؤسسوا مملكتهم على حد السيف:

أعلى الممالك ما يُبنى على الأسل

والطعن عند محبيهن كالقبل

وما تقر سيوف في ممالكها

حتى تقلقل دهراً قبل في القلل

وهو قوي في احتقار الناس إذ لم تعل همتهم كهمته ولم يرتفعوا عن السفاسف رفعته:

إذا ما الناس جربهم لبيب

فإني قد أكلتهم وذاقا

فلم أر ودهم إلا خداعاً

ولم أر دينهم إلا نفاقا

كل شيء في سبيل المجد لذيذ محبب إليه فالقتل والموت والعذاب وقطع الفيافي عذب المذاق:

فمـــــوتي في الـــــوغى عـــــيش لأنـــــي

رأيـــــت العـــــيش في أرب النفـــــوس

ســـبحان خـــالق نفســـي كيـــف لـــذتها

فيمـــــا النفـــــوس تـــــراه غايـــــة الألم

وهـــــان فمـــــا أبـــــالي بالرزايـــــا

لأنـــــي مـــــا انتفعـــــت بـــــأن أبـــــالي

وأخيراً ترى القوة تشع في جوانب أساليبه وقوافيه فإذا اشترك المتنبي وغيره من الشعراء في معنى من المعاني رأيت أبيات المتنبي غالباً أقوى أسلوباً وأجزل لفظاً وأقوى قافية وأمتن تركيباً لأنه يسبغ عليها من قوته ويزيد في شدتها وحدتها من شدته وحدته حتى لقد يقول المألوف والفكر الشائع الذي توارد عليه الشعراء في كل العصور فيخلع عليه المتنبي بعض نفسه وقطعة من حسه فكأنما هو جديد وكأنه لم يسبق إليه.

لعل موضع الضعف عنده أنه أنفق حياته في مدح الولاة والأمراء والملوك يصوغ الثناء لهم وينظم عقود المدح فيهم ويجهد

عقله في اختراع معاني الكرم والبأس ونسبتها إليهم ويرحل من بلد إلى بلد طلباً لعطاياهم ويقف على أبوابهم انتظاراً لمنحهم، ويتربص الفرص للقول فيهم، فإذا أقبل العيد هناهم وإذا مرضوا عوذهم وإذا انتصروا في حرب شاد بفعالهم وإذا انهزموا لطف من هزيمتهم. وإذا مات لهم ميت عزاهم. وإذا ولد لهم مولود بادر بتهنئتهم. وذلك ما لا يتفق كثيراً ونفسه الكبيرة وهمته العالية التي يتحدث عنها ولو أنه ترفع عن هذا كله وقنع بأن يتغنى بشعره في وصف شعوره لواءم بين نفسه وشعره، ولكنه على ما يظهر لم يشأ عيشة الزهد وإنما شاء عيشة الرفعة والشهرة بالملك أو بالولاية فرأى أن يتصل بالملوك للاستفادة منهم والاستعانة على تحقيق غرضه بهم وبمنحهم وبإيجاد الصلة بينه وبينهم، ولكنه من حين لآخر يشعر بلذعة في أعماق نفسه من هذه الصفة فيفلسف التهنئة ويقول:

إنما التهنئات للأكفاء ولمن يدني من البعداء

وأنا منك لا يهنئ عضو بالمسرات سائر الأعضاء

ثم هو لا يتنزل إلى مدح غير العظماء، وإذا أنشد شعره أنشد في علو وكبرياء فإذا لم يتحقق غرضه أو أحس بتيه ممدوحه عليه ثار ثورة من جرحت عزته ونيل من كبريائه،

وكأنما تجلت له الحقيقة وهي صعوبة الجمع بين نفس تمتلئ عزة وشاعر يقف شعره على المديح وهذا كله جذبته شؤون الحياة إلى الضعة والضعف أبت عليه نفسه، وحولته من ضعف إلى قوة ومن ضعة إلى رفعة:

لم الليـــالي الـــتي أخنـــت علـــى جـــدتي
برقـــــة الحـــــال واعـــــذرني ولا تلـــــم
لقـــــد تصـــــبرت حتـــــى لات مصـــــطبر
فـــــالآن أقحـــــم حتـــــى لات مقـــــتحم
ردى حيـــاض الـــردى يـــا نفـــس واتركـــي
حيـــاض خـــوف الـــردى للشـــاء والـــنعم

وبذلك فلسف الحياة كلها فلسفة قوة كما فلسف أبو العتاهية الحياة فلسفة زهد فويل للضعيف، وويل للجبان، وويل لمن يخاف الحوادث، وويل لمن يهاب الموت:

ولا قضـى حاجتـه طالـب فـؤاده يخفـق مـن رعبـه

هذه ناحية من نواحي فلسفة المتنبي هي "فلسفة القوة" وقد كان له في فلسفته نواح أخرى كثيرة لم يتسع لها هذا المقال

أحمد أمين

أبو الطيب المتبني

كان عبقرياً، ولكن...

بقلم الأستاذ خليل مطران

"... لا جرم أن أبا الطيب قال الشعر كأحسن ما قالته العرب إلى زمنه وبز بطائفة من أبياته وقصائده كل قائل من قبل ومن بعد، غير أن من وهب تلك العبقرية كان جديراً بأن يحدث في الشعر العربي حدثاً غير ما قصر همه عليه...".

عنى العالم العربي بذكرى "المتنبي" لانقضاء ألف عام على وفاته واستنفد كتاب الضاد صيغ المدح لذلك الشاعر العظيم وأبدوا في سيرته وأخلاقه آراء لم يختلف بعضها عن بعض كبير اختلاف دلت بجملتها على عبقريته كما نبهت على مواطن القوة والضعف في آدابه وطباعه.

ولما طلب إلى أن أكتب كلمة بين الكلمات التي ستنشر لأصدقائي من أساطين البيان في هذا العدد من الهلال، وكان

وقتي على أسف مني لا يتسع لاستئناف المطالعة والمضي في المراجعة لأخدم الغرض المروم حق خدمته، رأيت أن أجتزئ بإيراد محصل ثبت في ذهني من مدارستي القديمة لشعر أبي الطيب ولما وقفت عليه في كتب شتى من أخباره.

فأنا أخط هذه السطور وأبو الطيب متمثل في ذهني بناحية منه سما بها إلى أعلى الذرى.وأخرى تدلى بها إلى قرارة بعيدة الغور:

أما الناحية التي رفعته فهي عبقريته وأما التي خفضته فهي طمعه. صراع شديد قام في نفسه من بدء أمره بين الهدى والهوى. أحس بأنه وهب ما لم يوهبه غيره من وفرة العقل والقدرة على البيان، فكان أول ما سلكه في طلب العلياء ادعاؤه النبوة. غير أنه لم يعتم أن تبين من أية قمة شاهقة أشرف على هوة سحيقة مردية. فتاب عندما استتيب وعاد متضعاً لا متواضعاً إلى الطريق المعبد الذي طرقه الشعراء منذ جعلوا القريض وسيلة ارتزاق، فنظم المديح للذين استندى جوانبهم من ذوي الجاه العريض. وفي قصائده الأول خليط عجيب تتبين فيه المشاكسة العنيفة بين الطبع والتطبع، فآناً يحاكي المبرزين من شعراء عصره فتضعف إجادته وتعتاض أساليبه وترتبك صورة، وآناً يرجع إلى وحي فطرته ويسعده

استحكام ملكته فيأتي بالسوانح المبتكرات في حبر لا تلبس أحسن منها الغواني الخفرات. على أن هذه الفرائد الغوالي وإن لم يدانها ما جاورت من الجمان في قلائدها هي التي أعلت قدره وأشاعت ذكره ومهدت له السبيل حتى بلغ سيف الدولة بحلب.

ولدى هذا الملك الشجاع الأديب أراد المتنبي أن يمنح تكرمة لم يمنحها الشعراء قبله فأذن في الإنشاد جالساً بتلك الحضرة. ثم كان له من بسط العيش ما اشتهى وكان له من مصاحبة سيف الدولة في بعض غزواته ما توخى أن يثبت به لنفسه أنه رب سيف وقلم.

وفي الحق أنه كان شجاعاً وفي الحق أن قصائده في سيف الدولة جاءت مصداقاً لظنه بتفرده بين الشعراء وتفوقه عليهم، ولكنه في هذه الحالة تجددت به النزعة إلى اتخاذ مكان حسي لا معنوي إن لم يعل به الملوك علا به سائر الخلق. ولعل بوادر بدرت من هذه النزعة هي التي جنحت بسيف الدولة إلى الانقباض عنه آناً واستفزته لتحريش بعض اللغويين أو بعض الشعراء على مناقشته أو منافسته آناً آخر، فتأتي من تلك النزعات الظاهرة والخفية الجفاء الذي أفضى بالمتنبي إلى مفارقة ولي نعمته وإجابة كافور الأخشيدي إلى دعوته.

ولقد تأملت طويلاً في التماس السبب الذي يحمل رجلاً مثله على التخلي عن نعيم وجد فيه لالتماس حالة جديدة ملتبسة يتوخاها، فلم اقتنع أن النزعات المشار إليها آنفاً وما مست به كبرياءه قد أثارت فيه الحمق والغضب والعزم على تلك الهجرة. إذ أن المواقف الأولى التي وقفها من ممدوحيه بعد سقوط ما ادعاه من النبوة لم تكن كلها مما يوفر فيها العرض ويسلم الشرف الرفيع من أذى الذلة والضعة، وإنما كان السبب فيما اعتقدت أنه رأى مطمعه لدى سيف الدولة قد حد بحد لا سبيل إلى مجاوزته وأن إلحاح الأخشيدي في استزارته قد حرك فيه أقوى عوامل نفسه وهو الطمع فخيل إليه أن في مصر الواسعة، وعلى رأسها خصى فدم غاصب للملك، ولاية يستطيع أن يتصيدها. ومن يدري بعد بلوغه الولاية وتمكنه فيها ما تهيئه له الأقدار من غصب الغاصب على حد قوله:

وتضـــريب أعنـــاق الملـــوك وأن تـــرى

لـــك الهبـــوات الســـود والعســـكر المجـــر

على أن تركه لسيف الدولة وانتقاله من يقين إلى ريب وتبدّله من رخاء وجاه بآمال تحقيقها في يد الغيب كل أولئك

لم يكن بهين عليه. وفي ذلك يقول وكأنه يستدرج سيف الدولة إلى إرضائه واستبقائه:

يا من يعز علينا أن نفارقهم

وجداننا كل شيء بعدكم عدم

ثم يدلف بذلك الاستدراج إلى الإغراء فيقول في ختام تلك القصيدة التي هي من لباب الشعر وخلاصته الصافية:

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا

ألا تفارقهم فالراحلون هم

عرف المتنبي قدر ما يفارقه ولكن مطمعه غلب عليه ففارق...

ولقى كافوراً وحظي عنده زمناً ومنى بما تمنى خداعاً وزوراً. غير أنه أخذ بسحر الرغيبة وأنشد في الخصى شعراً هو أجود منظومة لأنه أمن عنده المنافسين من الشعراء ومضى على سليقته في استنزال إلهامه وفي اختيار روائع المباني لبدائع المعاني. حتى إذا طالت غلته وبدا له ما وراء رفيف السراب من حرقة تزيده حرقاً تولى عن مصر ولم يكتف لخيبته بهجو كافور بل هجا أهل مصر فأركبه طمعه في هذه الخطة

نكراً وحمله وزراً: نكر الذم في يومه لمن مدحه في أمسه ووزر الاستطالة على أمة إنما جاءته الإساءة إن كان ثمت إساءة لا منها بل من المسيء إليها. وفي هذا المعرض قد يصح أن يحمل قذع المتنبي لأهل مصر على غرض الاستثارة. ومثل هذا كان جارياً في ذلك العهد بل ظل شيء منه إلى هذه الأيام. ولكن رجلاً بمقدرة المتنبي وفطنته لا يحاسب كما يحاسب أحمق موتور بل كان حقيقاً به وهو أبلغ المتصرفين في الكلام أن يجد وجوهاً أخرى للاستثارة. ولو اتخذ لذلك مدح أهل مصر وتبيين ما يجنيه عليهم ذلك الغاصب لملكهم لكان سهمه أنفذ ومرماه أولى بالإصابة.

فالطمع من أول شأنه إلى آخره، قد جنى عليه وجنايته لم تقتصر على إبعاده عن مواطن النعماء وإركابه مراكب الهجر والشقاء، إلى أن كان مما اكتسبه في فراره من مصر لقاؤه منيته في فراره، بل تأتي من ذلك الطمع خطب جلل مني به الشعر.

ولا جرم أن أبا الطيب قال الشعر كأحسن ما قالته العرب إلى زمنه وبز بطائفة من أبياته وقصائده كل قائل من قبل ومن بعد. غير أن من وهب تلك العبقرية كان جديراً بأن يحدث في الشعر العربي حدثاً غير ما قصر همه عليه من

تفكير في بعض أساليب التعبير ومن التنبه لكل حالة من حالات الحياة، يقول فيها حكمة تتناشدها ألسنة الخلق كلما عرضت تلك الحالة، فإن أمثال هذه الجزئيات على ما لها من قيمة لم تحول نظم القصائد أدنى تحويل عن الخلط والخبط اللذين جرهما إليها المداحون من سلف له ومعاصرين.

رجل ادعى النبوة في مقتبل شبابه أي أنه نوى خلق دين للناس وبالبداهة إحداث نظام روحي واجتماعي وشرع شريعة وسن سنن للمعاش والمعاد.

رجل دلت بعد ذلك حكمه في شعره على أنه كان عليماً ببني الدنيا خبيراً بما يبدون وما يخفون واقفاً على مواقع الصواب والخطأ من سرائرهم ومن أفعالهم. زعم قوم أنه كان يعرف اليونانية وأن كلماته الجوامع مأخوذة عن أرسطاطاليس. وزعم آخرون أنه لم يعرف اليونانية وأن ما توافق من أفكاره وأفكار ذلك الفيلسوف الأكبر إنما كان توارد خواطر فهو على الحالين ذو مقدرة عقلية سامية لا نزاع فيها.

رجل ترى في نخبة من قصائده آيات إبداع في الوصف وفي إدراك الحقائق فضلاً عن الحلى اللفظية والابتكارات الخيالية فتستطيع أن تفاخر بصدر من مختاراته ما هو من نوعها في أية منظومة أجنبية بلغت ما بلغت من الغايات في الاتقان.

هذا الرجل كيف نفهم أن يلزم في قرض القريض خطة الشتات والخلط بين الأغراض المتباينة في نظم القصيدة الواحدة؟ ألست ترى أن استخدامه الشعر، ولا هم له إلا إشباع نهمة في نفسه ليست من الفن في شيء، قد حمله على تلك المحاكاة والمجاراة لئلا يبعده التجديد عن ذوي الحول والطول ومغدقي الهبات والصلات؟

كان غبناً وأي غبن أن يجعل المتنبي قصائده كما جعلها غيره ملتقى أغراض لا ارتباط بين معانيها ولا تلاحم بين أجزائها ولا مقاصد عامة تقام عليها أبنيتها وتوطد بها أركانها. غير أن طمعه قد جنى على عبقريته كما جني على مجده.

فأما إذا نظر إلى شعره من حيث هو الشعر الذي ألفه العرب منذ أجراه المداح في مجراه الباقي إلى اليوم، فإني لمن القائلين بأن المتنبي في الذروة العليا في طبقات شعرائنا وأنه رزق ما لم يرزقه أحدهم من سحر البيان وقوة الاختراع وسر التفوق.

خليل مطران

بين أرسطو والمتنبي

قال أرسطو: "الأشكال لاحقة بأشكالها، كما أن الأضداد مباينة لأضدادها".

وقال المتنبي: وشبه الشيء منجذب إليه، وأشبهنا بدنيانا الطغام.

وقال أرسطو: "الفرق بين الحلم والعجز أن الحلم لا يكون إلا عن قدرة، والعجز لا يكون إلا عن ضعف فليس للعاجز أن يتسمى باسم الحليم.

وقال المتنبي:

كل حلم أتى بغير اقتدار حجة لاجئ إليها اللئام

وقال أرسطو: "على قدر بصيرة العقل يرى الإنسان الأشياء، فالسالم العقل يرى الأشياء على قدر حقائقها، والنفس اللئيمة ترى الأشياء بطبعها".

وقال المتنبي:

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مراً به الماء الزلالا

وقال أرسطو: "على قدر الهمم تكون الهموم".

وقال المتنبي:

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن

يخلو من الهم أخلاهم من الفطن

وقال أرسطو: "النفس الذليلة لا تجد ألم الهوان، والنفس العزيزة يؤثر فيها يسير الكلام"

وقال المتنبي:

من يهن يسهل عليه ما لجرح بميت إيلام

وقال أرسطو: "الزيادة في الحد نقص في المحدود"

وقال المتنبي:

متى ما ازددت من بعد التناهي

فقد وقع انتقاصي في ازدادي

وقال أرسطو: "كره ما لابد من كونه عجز في صحة العقل"

وقال المتنبي:

نحن بنو الموتى فما بالنا نعاف ما لابد من شربه

الشاعر أبو الطيب

بقلم الأستاذ علي الجارم

طُلِبَ إلي أن أكتب في إحدى نواحي أبي الطيب المتنبي، وأعلم أن الناس في القديم والحديث كتبوا عنه كثيراً. وأن شعره نال من عناية الأدباء وبحثهم وجدلهم ما لم ينله شعر قبله ولا بعده وأن كتبا ضخاماً ألفت في كل ناحية من نواحي الرجل والشاعر، حتى لقد يسبق إلى الوهم أن كل قول فيه يكون معاداً، وأن كل نظرة فيه تقع على نظرات سبقتها إليه من قرون، ولكن المتنبي الضخم يعز على من رامه ويطول، فهو الجبل الأشم أينما قلبت فيه النظر رأيت عجباً، وكيفما ملت برأسك إلى ناحية من نواحيه رأيت جديداً، وهو البحر الخضم تقف عند ساحله فيبهرك ما ترى من عظم، ويفتنك ما تشاهد من ألوان، ثم أنت لا تزال ترسل النظرة في أثره النظرة فلا تعود كل واحدة منها إلا بمعنى جديد، وفن في الحسن بديع، ولأمر ما كان المتنبي يقول في ثقة ويقين:

أنـــام مـــلء جفـــوني عـــن شـــواردها

ويســـــهر الخلـــق جراهـــا ويختصـــم

فكيفما كتب الكاتبون في المتنبي لا تزال فيه مجالات للقول، ولا يزال يطل عليك من مشارف أبياته معنى سرى في ثوب في البيان قشيب يزيدك وجهه حسناً إذا ما زدته نظراً والمتنبي وبيننا وبينه ألف سنة أو تزيد يطغى على الزمن قوة، ويزهو على الأيام جدة وما نزال نقرؤه سنة أربع وخمسين وثلثمائة بعد الألف فنهتز له كما اهتز سيف الدولة سنة سبع وثلاثين وثلثمائة، ولا يزال يهمس في الأذن بالحكمة النادرة والقولة الحكيمة وقد مشت فوق رؤوس الحقب، وخاضت إلينا مفاوز القرون، وكانت لدة الدهر في شبيبته، ثم جاءت إلينا من ذلك المكان البعيد الذي نسميه الماضي وقد زادها القدم جدة، وخلع عليها تعاقب الأعوام بردين من جلال ويقين:

ذر الـــنفس تأخـــذ وســـعها قبـــل بينهـــا

فمفـــــترق جـــــاران دارهمـــــا العمـــــر

ولا تحســـــبن المجـــــد زقـــــاً وقينـــــة

فمـــا المجـــد إلا الســـيف والفتكـــة البكـــر

وتركـــك في الـــدنيا دويـــاً كأنمـــا

تـــداول سمـــع المـــرء أنملـــه العشـــر

نقرأ المتنبي فنحس أنه يخاطب كل نفس بأسرارها، ويكشف لكل سريرة مطوى أخبارها، وكثيراً ما حدثنا عن خلجات كنا نحس بها، ونسمع في النفس دبيبها ولكنا كنا عاجزين عن وصفها والتعبير عنها، وهي منا على طرف الثمام، ومن أخبر بهمسات النفوس من أبي الطيب؟ ومن هو أقدر منه على كشف جولات الخواطر:

بـــرتني الســـري بـــري المـــدى فـــرددنني

أخـف علـى المركـوب مـن نفسـي جرمـي

وأبصـــر مـــن زرقـــاء جـــو لأنـــني

متـــى نظـــرت عينـــاي ســـاواهما علمـــي

ألف سنة تمر تطوي فيها أمم وتنشر أمم، ويتنقل فيها العقل الإنساني في أطوار شتى يمحو بعضها بعضاً، وتتبدل العادات غير العادات والأفكار، والمتنبي لا يزال يقرأ ويقرأ ويجد فيه كل عصر طلبته من غذاء روحي تطمئن به النفس وترتاح إليه الضمائر.

مضى سيف الدولة ومضت آثاره، وذهب كافور وانطوت أيامه. وأين على الحاجب هذا الذي أجاز المتنبي على قصيدة من روائع شعره بدينار واحد؟ ذهب هؤلاء جميعاً وبقي ذكر المتنبي كالصخرة العبوس ينفرج أمامها زحام الأيام، وتنكص دونها صروف السنين:

وعنـــــدي لـــــك الشـــــرد الســـــائرا
ت لا يختصصـــــــن مـــــــن الأرض دارا
قـــــواف إذا ســـــرن عـــــن مقـــــولي
وثـــــبن الجبـــــال وخضـــــن البحـــــارا
ولـــــي فيـــــك مـــــا لم يقـــــل قائـــــل
ومـــــا لم يســـــر قمـــــر حيـــــث ســـــارا

فالمتنبي عظيم وأريد في هذا المقال أن أكشف عن قليل من سر هذه العظمة، وأن أبين بقدر ما في قلمي شيئاً من ضخامة هذا الشاعر وقوته التي عصفت بشعراء عصره، وحجبتهم بغبارها، وما كانوا خاملين ولا كانوا مقصرين، وفيهم السري الرفاء وكشاجم والنامي والدمشقي والسعدي وأمثالهم من كبار الشعراء! ولكنه السهم العائر، والجد

العاثر، أن تعيش في عصر ينجم فيه نابغ يملأ الدنيا صخباً ولجباً، وينثر درر بدائعه يميناً وشمالاً فيصغي إليه الدهر وتشخص له الأبصار وتبقى أنت مغموراً في الزحام لا تعدم وكرة من مغامر أو ركلة من مزاحم في ذلك الخصم الزاخر الرجاف، والدنيا أم إذا برزت مواهب أحد أبنائها انصرفت إليه بتدليلها، وطوقته بحنانها نابذة أبناءها الآخرين الذين قصر بهم المدى وقعد بهم الجد العثور.

وكان المتنبي شاعراً بتلك العظمة وذلك النبوغ النادر فتحدى شعراء عصره في صلف لا يطاق وجبرية لا تحتمل:

إذا شاء أن يلهو بلحية أحمق

أراه غباري ثم قال له الحق

ولا تبال بشعر بعد شاعره

قد أفسد القول حتى أحمد الصمم

وأظهر ما يمتاز به شعر أبي الطيب القوة والروعة والابتكار والنزوع إلى غاية لم يصل إليها الشعراء قبل، والقدرة على إرسال المثل، ودقة الوصف والتصرف في المعنى القديم حتى يعود غضاً جديداً. وقد تجد لكل شاعر في كل

قصيدة قالها بيتاً أو أبياتاً قليلة تعد من عيون الشعر وبدائعه، أما المتنبي فلا تجد له في كل قصيدة إلا بيتاً أو أبياتاً قليلة لم تصل إلى شأوه البعيد، والباقي الكثير من القصيدة غرر ودرر، فهو إذا مدح يقول:

نهبت من الأعمار ما لو حويته

لهنئت الدنيا بأنك خالد

فالناس يمدحون الملوك بالشجاعة والإقدام وكثرة الغزوات وأن النصر معقود بلوائهم، ولكن المتنبي يترك كل هذا ليتناوله صغار الفنانين ويصعد في المدح بهذه المعاني إلى أفق أعلى تظهر فيه خصائصه وتتميز مواهبه فيجعل قتل الأعداء نهباً لأعمارهم واغتصاباً لها، ثم يدفعه خياله البعيد إلى فرض أن هذه الأعمار الكثيرة اتصل بعضها ببعض فكونت عمراً طويلاً غير محدود ثم يرتقي إلى أوج أسمى فيفرض أن سيف الدولة وهب هذه الأعمار غير المتناهية التي انتزعها من أعدائه ولا يكتفي بأن هذا إن تم يصل به إلى الخلود بل يدعى أن الدنيا بمن فيها وما فيها تهنأ بهذا الخلود. ثم ما أجل تصوير النصر المحقق في قوله بعد هذا البيت:

فأنـــت حســـام الملـــك والله ضـــارب

وأنـــت لـــواء الـــدين والله عاقـــد

ثم انظر إليه حين يقول في سيف الدولة:

أتحســب بــيض الهنــد أصــلك أصــلها

وأنـــك منهـــا ســـاء مـــا تتـــوهم

إذا نحـــن سمينـــاك خلنـــا ســـيوفنا

مـــن التيـــه في أغمادهـــا تتبســـم

وقد اتخذ المتنبي من اسم سيف الدولة سبلاً شتى للافتتان في مديحه والمماثلة بينه وبين السيوف فأجاد في كثير من ذلك وحلق، ومثل هذه الفرص تعرض لكثير من الشعراء، ومجال القول فيها هين إذا لم يتجاوز الشاعر اللعب باللفظ على نحو رخيص من التخيل، أما المتنبي فليس من هذا الصنف ولا من ذلك الطابع. استمع له وهو يتهكم بسيوف الهند حين تظن كذباً وغروراً وتلمساً لشرف الاتصال بسيف الدولة أنها هي وسيف الدولة من أصل واحد فكلاهما قاطع بتار، وكأني أسمع تهاتفه في سخرية واستهزاء حين يقول: "ساء ما

تتوهم" وهنا موطن قوته وصرامته الشعرية، فأكثر ما تظهر في هذه الجمل القصيرة المفصولة التي لها وقع السهام، ثم يصعد إلى أفق لا تسافر إليه الظنون فيقول أن هذه السيوف تكتفي من الشرف بأن اسمك وافق اسمها فإذا سميناك خلناها تبتسم في أغمادها تيهاً وعجباً.

ثم خذ مثالاً آخر في مدح كافور:

إذا طلبوا جدواك أعطوا وحكموا

وإن طلبوا الفضل الذي فيك خيبوا

ولو جاز أن يحووا علاك وهبتها

ولكن من الأشياء ما ليس يوهب

أيستطيع شاعر أن يصور الصفح والتجاوز وعظم النفس هذا التصوير؟ إن حسادك وأعداءك إذا سألوك العطاء أعطيت وأغدقت وسألتهم أن يتحكموا فيما يطلبون، ولكنهم لو طلبوا أن ينالوا ما فيك من كريم الشيم وعالي الهمم ردوا خائبين لا ضناً منك ولا بخلاً، فلو كان في استطاعتك أن تمنحهم إياها لفعلت "ولكن من الأشياء ما ليس يوهب".

وفي هذه الجملة القصيرة أيضاً تظهر قوة الشاعر وشدة أسره

ومن أبدع ما قاله في المديح:

مالئـــاً مـــن نوالـــه الشـــرق والغـــر

ب ومـــن خوفـــه قلـــوب الرجـــال

قابضـــاً كفـــه الـــيمين علـــى الـــدن

يـــا ولـــو شـــاء حازهـــا بالشـــمال

ننتقل بك إلى الوصف ولنبدأ بهذه الأبيات:

وذي لجـــب لا ذو الجنـــاح أمامـــه

بنـــاج ولا الـــوحش المثـــار بســـالم

تمـــر عليـــه الشـــمس وهـــي ضـــعيفة

تطالعـــه مـــن بـــين ريـــش القشـــاعم

إذا ضـــوؤها لاقـــى مـــن الطـــير فرجـــة

تـــدور فـــوق البـــيض مثـــل الـــدراهم

ويخفـــى عليـــك الرعـــد والـــبرق فوقـــه

مـــن اللمـــع في حافاتـــه والهمـــاهم

برع المتنبي في وصف الجيوش والوقائع، ما في ذلك شك، فقد كان يحمل بين جنبيه نفس نزاعة إلى القتال تدفعها الآمال الكبار، وكانت وقائع سيف الدولة مع الروم حافزة لهذه النفس مؤججة لتلك الجذوة، ولو حاولنا أن نختار له خير ما قاله في هذه الناحية لطال المقال، ولكننا نكتفي بالأبيات التي قدمنا ففيها قوة وفيها جمال شعري وفيها وصف دقيق. ما أروع أسلوبه في البيت الأول! وما أجمل ما فيه من تقسيم وتنسيق، فالجيش كثير العدد كثير اللجب تتهاوى قذائفه، أثار الوحوش من مكامنها والطيور من أوكارها، فلا ذو الجناح بناج من سهامه المترامية ولا الوحوش بسالمة من عديده الخضم، ثار فيه الغبار فسد الأفق وعلا في السماء فكسف الشمس، فهي تمر عليه ضعيفة ضئيلة الضوء، فإذا أطلت عليه فإنها تطل من بين ريش النسور التي حلقت فوقه لوثوقها بنصره وشدة طمعها في جثث أعدائه، وقد شرح هذا المعنى في قصيدة أخرى وجلاه فقال:

يطمع الطير فيهم طول أكلهم
حتى تكاد على أحيائهم تقع

وهـذه الشـمس إذا وفقـت إلى فرجـة بـين أجنحـة النسـور سـقطت أضـواؤها علـى الخـوذات مـدورة كالـدراهم، وهـذا تشـبيه يـدل علـى دقـة الملاحظـة وأن المشـاهدة الدقيقـة لمظـاهر الأشياء كـان لهـا أثـر بعيـد في تكـوين المتنبي، وقـد أعـاد هـذا المعنى في قصيدة شعب بوان فقال:

وألقـــــى الشـــــرق منهــــا في ثيــــابي
دنــــــانيراً تفــــــر مــــــن البنــــــان

ثـم إن هـذا الجـيش كثـرت فيـه همهمـة الأبطـال، وهـي الصوت يتردد في الصدر فإذا رعدت السـماء لم تسـمع، وازداد فيه بريق السيوف فإذا لمع البرق لم يبصر، وإذا كانت الهمهمة وهي الصوت الخافت تخفى الرعد فأجدر بأن يكون الجيش بالغاً الغاية في العظم.

وللمتنبي منحـى في الرثـاء عجيـب، فهـو لا يلطـم الخـدود، ولا يشـق الجيـوب كمـا يفعـل صـغار الشـعراء، ولكنـه يطلـق العنان لفلسفته في الموت والحياة فهو يقول في رثاء أخت سيف الدولة الصغرى:

خطبــــــة للحمــــــام لــــــيس لهــــــا رد
ولكنهــــــا المســــــماة ثكــــــلا

وإذا لم تجـــد مـــن النـــاس كفئـــاً

ذات خـــــدر أرادت المـــــوت بعـــــلا

ولذيـــذ الحيـــاة أنفـــس في النـــف

س وأشـــهى مـــن أن يمـــل وأحلـــى

وإذا الشـــيخ قـــال أف فمـــا مـــل

حيـــاة وإنمـــا الضـــعف مـــلا

آلـــة العـــيش صـــحة وشـــباب

فـــإذا وليـــا عـــن المـــرء ولى

وقد سلك في رثاء الأخت الكبرى طريقاً جديداً هو برثاء القواد والملوك أشبه منه برثاء النساء:

طـــوى الجزيـــرة حتـــى جـــاءني خـــبر

فزعـــت فيـــه بآمـــالي إلى الكـــذب

حتـــى إذا لم يـــدع لـــي صـــدقه أمـــلا

شـــرقت بالـــدمع حتـــى كـــاد يشـــرق بـــي

كـــــأن فعلـــــة لم تمـــــلأ مواكبهـــــا

ديـــــار بكـــــر ولم تمـــــنح ولم تهـــــب

والبيت الأول تصوير غريب لحال من فوجئ بخبر محزن، فهو يتشبث بالأوهام، ويفزع لتكذيبه إلى أوهى الأسباب.

ومن خير مراثيه وأقواها مرثيته في جدته، ولكنه شغل أكثرها كعادته بالحديث عن نفسه وللمتنبي في الهجاء القول الممض والكلام المر. ولم يكن كثير الهجاء ولكن بيتاً واحداً من هجائه يقوم مقام القصيدة الطويلة في الإيلام وشدة الإيجاع وإصابة المحز، فهو يقول لابن كروس جليس ابن عمار:

فلـــو كنـــت امـــرءاً تهجـــى هجونـــا

ولكـــن ضـــاق فـــتر عـــن مســـير

هذا منتهى ما يصل إليه الاحتقار فهو ليس برجل يؤبه له لأن قدره أضيق من أن يتسع لجولات الهجاء، فهو كالفتر أقل من أن ينفسح لمسير.

أما هجاؤه لكافور فقد قذفه فيه بالصيلم:

إنـــــي نزلـــــت بكـــــذابين ضـــــيفهم

عـــن القـــرى وعـــن الترحـــال محـــدود

جـــود الرجـــال مـــن الأيـــدي وجـــودهم

مـــن اللســـان فـــلا كـــانوا ولا الجـــود

ولاو أن إنساناً حاول أن يهجو آلام مخلوق ما استطاع أن يقول فيه أنكى من هذا وأقذع وإذا شكا الزمان ونقد الاجتماع أو تعرض لأخلاق الناس، فهناك الانهمار في الحكمة وضرب الأمثال وفلسفة الحياة. ولا نريد هنا أن نكثر من التمثيل فحكم أبي الطيب كثيرة جداً وقد تناولها الأدباء بالجمع والتمحيص والنقد، وأكثر قصائده حكماً: "لا افتخار إلا لمن لا يضام"، "فؤاد ما تسليه المدام"، "لهوى النفوس سريرة لا تعلم"، "صحب الناس قبلنا ذا الزمانا".

وأوابد أبي الطيب التي بز بها الشعراء ووصل بها إلى قمة الفن الشعري أكثر من أن تجمع في مثل هذا المقال. وتكفينا هنا هذه الكلمات الموجزة في إذاعة شيء من سر عبقريته.

علي الجارم

الدسائس الأدبية

بين المتنبي والصاحب بن عباد

بقلم الدكتور زكي مبارك

هذا فصل موجز أصور به لوناً من ألوان الدسائس الأدبية التي شهدها القرن الرابع. وما أريد في هذا الفصل أن أتحدث عن حياة المتنبي. فلذلك تفاصيل في هذا العدد من الهلال. وما أريد أيضاً أن أتحدث عن حياة الصاحب فقد أطلت فيه القول في كتاب النثر الفني. وإنما أقف عند مسألة واحدة كان لها أثر في تلوين النقد الأدبي عند كتاب القرن الرابع. وتلك هي الخصومة بين المتنبي والصاحب بن عباد. والمطلعون على التاريخ الأدبي لذلك العهد يعرفون أن الصاحب كان يتشهى أن يستعبد كبار الكتاب والشعراء، ويعرفون أن نفسه تسامت إلى استعباد المتنبي وأنه خاب في ذلك وكانت هذه الخيبة جرحاً بليغاً تنزى له قلب ابن عباد فحقد على المتنبي وحرض عليه كبار الناقدين.

ولنقيد هنا أن المتنبي كان ترفع عن مدح رجال آخرين من أشباه الصاحب منهم الوزير المهلئ نعرف ذلك من خطاب المتنبي الذي أرسله إلى الصابي وكان الصابي راسل أبا الطيب في أن يمدحه بقصيدتين ووسط بينه وبينه رجلاً من وجوه التجار فقال أبو الطيب للوسيط: "قل لأبي إسحاق: والله ما رأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك ولا أوجب على أحد في هذه البلاد من الحق ما أوجبته. وأنا إن مدحتك تنكر لك الوزير يعني المهلي وتغير عليك لأنني لم أمدحه فإن كنت لا تبالي هذه الحال فأنا أجيبك إلى ما التمست وما أريد منك مالاً ولا عن شعري عوضاً" والمهم أن يعرف القارئ أن ابن عباد حقد على المتنبي لأنه لم يمدحه فلنحدثه عن خطر ذلك الحقد في الآثار النقدية التي حفظت عن ذلك العهد ولنكتف بشاهدين اثنين:

الشاهد الأول:

ألف أبو هلال العسكري كتاباً سماه "الصناعتين" وهو كتاب ممتع تحدث فيه عن الخصائص الشعرية والنثرية، ولكن عند التأمل نجد في ذلك الكتاب النفيس ظلالاً للدسائس الأدبية التي وقعت بين المتنبي وبين ابن عباد، فالمؤلف

يتلمس الفرص ليشيد بأدب الصاحب وليغض من قدر المتنبي. أما أشادته بأدب الصاحب فتظهر في استشهاده بكلامه كقوله في باب السجع والازدواج: "ومثله قول الصاحب: هل من حق الفضل تهضمه شغفا ببلدتك، وتظلمه كلفا بأهل جلدتك.. وقوله: وقد كتبت إلى فلان ما يوجز الطريق إلى تخلية نفسه وينجز وعد الثقة في فك حبسه".

ونراه في مكان آخر يقول: "روى لنا أن عمر بن أبي ربيعة أنشد ابن عباس رضي الله عنه: تشط غداً دار جيراننا. فقال ابن عباس: وللدار بعد غد أبعد. فقال عمر: "والله ما قلت إلا كذلك... وإذا كان القوم في قبيلة واحدة وفي أرض واحدة فإن خواطرهم تقع متقاربة كما أن أخلاقهم وشمائلهم تكون متضارعة... وأنشدت الصاحب إسماعيل بن عباد: "كانت سراة الناس تحت أظله، فسبقني وقال: فغدت سراة الناس فوق سراته وكذلك كنت. قلت. فعلى هذا جائز ما يدعى لهم".

وفي هذه العبارة تظهر مجاملة أبي هلال للصاحب فهو يتخذ من حضور ذهنه دليلاً على أن حضور الذهن من النعم التي يخص بها الله بعض الناس!

ونراه في باب الفصل والوصل يقول:

"وهكذا يفعل الكتاب الحذاق والمترسلون المبرزون. ألا ترى ما كتب الصاحب في آخر رسالة له: (فإن حنثت فيما حلفت فلا خطوت لتحصيل مجد ولا نهضت لاقتناء حمد ولا سعيت إلى مقام فخر ولا حرصت على علو ذكر...) فآتي بإيمان ظريفة ومعان غريبة".

وما أحب أن أستقصى ما تكلف العسكري من الثناء على الصاحب فذلك مبثوث في كتاب الصناعتين. وأما تحامله على المتنبي فيظهر في مواطن كثيرة من كتابه. فهو لا يذكره باسمه ولا يتحدث عن شعره إلا حين يريد التمثيل للشعر القبيح. ففي باب تمييز المعاني ينشد قول السيد الحميري:

أيـــا رب إنـــي لم أرد بالـــذي بـــه

مـــدحت عليـــا غـــير وجهـــك فـــارحم

ثم يقول: "فهذا كلام عاقل يضع الشيء موضعه ويستعمله في إبانه. ليس كمن قال وهو في زماننا:

جفخـــت وهـــم لا يجفخـــون بهـــا بهـــم

شـــيم علـــى الحســـب الأغـــر دلائـــل

فاشمت عدوه بنفسه"

وفي باب الكناية والتعريض يقول: "ومن شنيع الكناية قول بعض المتأخرين:

إنـــي علـــى شـــغفي بمـــا في خمرهـــا

لاعـــــف عمـــــا في ســـــراويلاتها

"وسمعت بعض الشيوخ يقول: الفجور أحسن من عفاف يعبر عنه بهذا اللفظ"

وفي باب التوشيح يقول: ومما عيب من هذا الضرب قول بعض المتأخرين:

فقلقلـــت بـــالهم الـــذي قلقـــل الحشـــا

قلاقـــــل عـــــيش كلـــــهن قلاقـــــل

ألا ترون كيف استطاعت تلك الدسائس أن تفسد الحكم في نفس رجل شريف مثل أبي هلال؟ لقد كان في مقدور العسكري أن ينصف أبا الطيب وأن يتجاوز عن سيئاته، ولكنه شغل نفسه بتعقب مساوئه ليدخل السرور على قلب ابن عباد. ولنتذكر أن ما أخذه العسكري على المتنبي ظل يلاحق هذا الشاعر في جميع العصور الأدبية بحيث لا يكاد يخلو كتاب من كتب النقد من الإشارة إلى تعسف

المتنبي وإسفافه في الحدود التي رسمها صاحب كتاب الصناعتين.

الشاهد الثاني:

لم يكتف الصاحب بتحريض النقاد على المتنبي، وإنما اندفع يغمزه ويناوئه برسالة كتبها بنفسه على قلة ما كان يكتب في النقد الأدبي، وهي رسالة صغيرة ولكنها قيمة، بغض النظر عما فيها من تحامل ومكابرة، وفي مطلع تلك الرسالة يتحدث الصاحب فيقول:

"كنت ذاكرت بعض من يتوسم بالأدب الأشعار وقائليها والمجودين فيها، فسألني عن المتنبي فقلت: إنه بعيد المرمى في شعره، كثير الإصابة في نظمه إلا أنه ربما يأتي بالفقرة الغراء، مشفوعة بالكلمة العوراء فرأيته قد هاج وانزعج، وحمى وتأجج، وادعى أن شعره مستمر النظام، متناسب الأقسام، ولم يرض حتى تحداني فقال: إن كان الأمر كما زعمت فاثبت في ورقة ما تنكره، وقيد بالخطبة ما تذكره، لتتصفحه العيون. وتسبكه العقول. ففعلت، وإن لم يكن تطلب العثرات من شيمتي ولا تتبع الزلات من طريقتي. وقد قيل: أي عالم لا يهفو، وأي صارم لا ينبو، وأي جواد لا

يكبو؟. وإنما فعلت لئلا يقدر هذا المعترض أني ممن يروي قبل أن يروي، ويخبر قبل أن يخبر، فاستمع وأنصت، واعدل وأنصف، فما أوردت فيه إلا قليلاً، ولا ذكرت من عظيم عيوبه إلا يسيراً وقد بلينا بزمن يكاد المنسم فيه يعلو الغارب، ومنينا بأعياد أغمار اغتروا بممادح الجهال، لا يضرعون لمن حلب الأدب أفاويقه، والعلم أشطره، لا سيما الشعر، فهو فوق الثريا وهم دون الثرى، وقد يوهمون أنهم يعرفون، فإذا حكموا رأيت بهائم مرسنة، وأنعاماً مجفلة".

وفي هذه الكلمة بيان لنفسية الصاحب وما انطوت عليه من أضغان وأحقاد، فهو يرى المتنبي رجلاً أنصفه الزمان الجهول، ويرى أشياعه من السوائم والانعام.

ولنقدم للقارئ نماذج من نقد الصاحب للمتنبي. قال:

"ولقد مررت على مرثية له في أم سيف الدولة تدل مع فساد الحس على سوء أدب النفس. وما ظنك بمن يخاطب ملكاً في أمه بقوله: رواق العز فوقك مسبطر. ولعل لفظة (الاسطرار) في مراثي النساء من الخذلان الصفيق الدقيق، نعم هذه القصيدة يظن المتعصبون له أنها من شعره بمثابة "وقيل يا أرض ابلعي ماءك" من القرآن، وفيها يقول:

وهــذا أول النــاعين طــراً لأول ميتــة في ذا الجــلال

"ومن سمع باسم الشعر، عرف تردده في انهتاك الستر. ولما أبدع في هذه القصيدة واخترع قال:

صلاة الله خالقنا حنوط على الوجه المكفن بالجمال

"وقد قال بعض من يغلو فيه: هذه استعارة، فقلت: صدقت، ولكنها استعارة حداد في عرس. ولما أحب تقريظ المتوفاة والإفصاح عن أنها من الكريمات أعمل دقائق فكره واستخرج زبد شعره، فقال:

ولامن في جنازتها تجار يكون وداعهم خفق النعال

وكان الناس يستبشعون قول مسلم: سلت وسلت ثم سل سليلها. حتى جاء هذا المبدع بقوله:

وأفجع من فقدنا من وجدنا قبيل القد مفقود المثال

"فالمصيبة في الراثي أعظم منها في المرثى. ومن أوابده التي لا سمع طول الدهر مثالها قوله:

إذا كــان بعــض النــاس ســيفاً لدولــة

ففــي النــاس بوقــات لهــا وطبــول

"وهـذا التحـاذق كغـزل العجـائز قبحـاً، ودلال الشـيوخ سماجة، ولكـن بقـي أن يوجـد مـن يسـمع ومـن افتتاحـه الـذي يفتح طرق الكرب، ويغلق أبواب القلب. قوله:

أراع كذا كل الأنام همام وسح له رسل الملوك غمام

"ولـو لم يـتكلم في الشـعر إلا مـن هـو أهلـه لمـا سمـع مثل هذا".

ومـا أحـب أن أطيـل مـا أخـذ الصـاحب علـى المتنبي. فقـد طبعت رسالته بالقاهرة، ويستطيع القارئ أن يرجع إليها حين يشاء. والمهم أن نسجل أن رسالة الصاحب جرأت النقاد على المتنبي وفتحت لهم باب القول، حتى ليمكن الحكم بأن ما ورد فيها من المآخذ كان المصدر الأول لأكثر المطاعن التي صوبها النقاد إلى المتنبي.

وللقـارئ أن يسـأل: أكـان مـن الممكـن أن تسـتر هفـوات المتـنبي لـو سـكت عليهـا العسـكرى والصـاحب ابـن عبـاد؟ ونجيب بأن تلك الهفوات كانت ظاهرة، وما كان يمكن أن يسدل عليها الحجاب. ولكـن تلك الدسـائس الأدبيـة كشـفتها بطريقـة جارحـة. وأحاطتهـا بـألوان مـن السـخرية والـتهكم والاستهزاء وقد مر ذكر المهلبي في مطلع هذا الفصل. فلنشر

هنا إلى أن ترفع المتنبي عن مدح المهلبي كان له من العواقب ما يشبه ما حدث حين ترفع عن مدح ابن عباد، فقد أولع الحاتمي بالوقوع في المتنبي ولم يكن ذلك خدمة خالصة للأدب، وإنما أريد به التقرب إلى المهلبي.

فإن سألتم: وما الذي صنع الحاتمي؟ فإنا نجيب بأنه طعن المتنبي طعنة دامية حين ألف (الرسالة الحاتمية) وهي سهم مسموم، لأنه رد حكم المتنبي إلى أصولها في كلام أرسطاليس. فاستطاع بذلك أن يفضحه فضيحة بلقاء.. قد تقولون: ولكن المتنبي بقي مع ذلك من الخالدين.

وهذا حق. ولكن أولئك النقاد سيخلدون أيضاً، وستظل أرواحهم تضايق روح المتنبي ما دامت الأرض والسماء

زكي مبارك

عبرة الشباب

لمحة عن المنازع القومية في المتنبي

بقلم الأستاذ سامي الكيالي

عاش المتنبي عمره وهو يحمل في صدره عزم الشباب. نفس طموحة، وروح مغامرة، وقلب قلق وثاب، وجنون بالمجد والتعالي والعظمة، وإيمان الواثق من نفسه وما إلى ذلك من هذه الألوان التي تتلاقى ظلالها في حياة العصاميين الذين يرتفعون بنفوسهم من الضعة إلى قمة المجد وذروة العلاء... هذا هو المتنبي وهذه أظهر خصائص نفسيته. فقد نشأ نشأة الفقراء، وعاش حياة ضنكة مغمورة بألوان الشقاء.

ولكن فقره لم يحل دون تفتح مواهبه، وما كان الشقاء ليحيل ذكاءه بلهاً وتوقد ذهنه خبلاً، أو ليقعده في أرض الكوفة مغمور الاسم لا يدوي صداه في الآفاق. فقد تطلع المتنبي وهو في مقتبل عمره إلى الأمجاد ولم تصدمه الأحداث التي جابهته بل احتملها أبي النفس قوي الإرادة هادئ الضمير.

وظل في طريقه يقتحم المصاعب ويواجه الأهوال. يجالد ويقارع ويناضل ويسير من بلد إلى بلد حتى همد جسمه بعد أن ترك في دنيا الأدب العربي دوياً رن صداه حتى في آداب الأمم الحية.

دخل المتنبي غمار الحياة وهو خلو إلا من هذا الخافق بين جنبيه، ومن هذه النزعات الصلبة القوية التي امتزجت بدمه وأعصابه. دخل غمار الحياة وكأنما كل شيء يعلن له "إن الدنيا لمن غلب". عصر يعج بالاضطرابات والدسائس. إمارات تتقاذفها الأيدي في كل مصر وصقع، متغلبون تضطرم نفوسهم بالأهواء والشهوات. وشهوة المجد في نفس شاعرنا لم تكن أقل منها في نفس غيره من الطامحين وهو القائل:

وفؤادي من الملوك وإن كا ن لساني يرى من الشعراء

فلم ينكمش في عقر داره، ولم يشغل نفسه بالتوافه، ولا عرف الضعف والوهن بل زج نفسه في هذا الأتون الملتهب، وأخذ يجوب البلاد ويبلو أخلاق الناس ويتصل بالأمراء. وكان الشعر وسيلته في المدح، فإذا مدح أشاد بنفسه وقوته وأدبه، وأشار إلى مطامحه، وصرح أنه ليس كغيره من شعراء المديح الذين يكتفون بالتافه اليسير من أغراض الدنيا:

وفي النـــاس مـــن يرضـــى بميســـور عيشـــه
ومركوبـــــه رجـــــلاه والثـــــوب جلـــــده
ولكـــــن قلبـــــاً بـــــين جـــــنبي مالـــــه
مـــــدى ينتهـــــي بـــــي في مـــــراد أحـــــده

وفرق كبير بين الشاعر الذي يرتمي بين أعتاب ممدوحيه ضعيف النفس ذليلها، وبين الذي يرسل شعره قوي النفس عزيزها، ويعلن عن شخصية لها طموحات ورغبات لا حد لها ولا أمد. هذا هو المتنبي في مجموعه. فما الذي يستفيده الشباب من دراسة حياته؟ والشباب في عصرنا هذا يملأ الدنيا ويشغل الناس على حد تعبير ابن رشيق في المتنبي نعم، يملأ الشباب الدنيا بميوله ونزعاته، بواجبه نحو نفسه ووطنه، بتحمله وقر النهضات وتضحيته بسخاء، بمدى صلته بحاضره وربطه بين ماضيه وحاضره ومستقبله. فهل يستطيع المتنبي أن يكون هدى الشباب إذا ما تلمسوا بعض شكوكهم في حياته وشعره؟.. إن طابع هذا العصر يختلف عن عصر مضى عليه ألف عام. ولكن نفسية العصاميين في جوهرها ومنازعها وطموحاتها هي هي مهما تباينت العصور. وقبل أن نجيب على هذا السؤال الذي فرضه "الهلال" الأغر نريد أن نقول إن النزعة

الجديدة في دراسة الأدب لم تعد لترتضى هذه "السطحية" في درس الأدب العربي بل لابد من درسه بتعمق واستقصاء وكشف لهذه القوى الدفينة التي تكمن في قصيده ومنثوره. فأنا مثلاً لم يعد يهمني من قصائد المتنبي في سيف الدولة هذه البهرجة اللفظية والأساليب القوية والحكم الغوالي، بل ابحث فيها وأنا أدرس عصر الحمدانيين هذه الألوان التي أرى في أصباغها نقع المعارك التي خاضها سيف الدولة في حروبه مع نيقفور البيزنطي، هذه المعارك التي تكاد تشبه معارك هوميروس في أليادته. وأخرج من دراستي إلى أن أدب المتنبي لم يكن أدب الحكمة والمديح فحسب، بل كان صورة حية لهذا "الأدب القومي" الذي تكاد ترتفع دعوته الصارخة في هذه الأيام على "الأدب العالمي". وأنه من الزراية بأدبنا القديم أن نقف عند هذه النظرة الضيقة التي لا نرى في أغراض الشعر العربي سوى المديح والغزل والنسيب والرثاء والفخر. مع أن قليلاً من البحث في شعر المتنبي يكشفنا على منازع قومية حية تنبثق من قصائد المديح، التي تجمع بين نظرته الإنسانية الشاملة، وعاطفته العربية الزاخرة. ومن الخبل أن نذهب مع البعض إلى أن الأدب القومي عرض زائل والأدب العالمي جوهر خالد. فخلود الأدب العالمي ذي النزعة الإنسانية لا يجرد الأدب

القومي من طابعه وقوته وأثره الواضح في تصوير منازع الأمم تصويراً يظل بارز الأثر مهما تصرمت السنون والأجيال. وهذا الأدب يشغل مكانه السابق في نهضات الشعوب وكفاحها. وهذه النزعة الهتلرية قد قضت أو كادت على كل أدب لا يصور النزعات القومية. ومثل هذا تجده في تركيا الكمالية وفي إيطاليا الفاشيستية. والمتنبي الشاعر الذي كان يتخذ المدح وسيلة للتحدث عن نفسه وتصوير ألوان الانتكاس في عصره. والذي كان يرسل آراءه السديدة في طباع البشر، كان من ناحية ثانية، ينضح عن نزعة قومية صارخة. وهذا ما يجب أن يلتفت إليه الشباب في دراستهم شعر المتنبي. ودراسة شعره كدراسة حياته تهدي الشباب إلى الكثير من هذه الشكوك التي تعترضهم في كفاح الحياة. وشكوك الشباب في عصرنا هكذا كثيرة: أينكمشون في عزلة أم يتصلون بالعالم؟ أتكون حياتهم حياة ترف وميوعة أم جهد وجلاد؟ أيغامرون أم يكتفون بالتافه الحقير من أغراض الدنيا؟ إن شاعرنا الحكيم الذي كان يصرخ من أعماق قلبه:

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم

بين طعن القنا وخفق البنود

والـذي كـان يرتفـع بنفسـه وشـعره عـن حيـاة الـوهن والضعف والميوعة، إلى حياة القوة والمغامرة والكفاح والنضال وما إلى ذلك ما يطويه هذا البيت الذي يمثل نفسيته الطامحة أصدق تمثيل:

يقولـــون لـــي مـــا أنـــت في كـــل بلـــدة

ومـــا تبتغـــي؟ مـــا ابتغـــى جـــل أن يســـمى

والذي كان "يطلب من زمنه مالا يطلبه الزمن نفسه" هذا الشاعر الذي يمثل في حياته روح المغامرة والجرأة والرجولة القوية جدير بأن يكون رفيق الشباب ومنارتهم الهادية في كفاح الحياة هذه الحياة التي تتطلب من الشباب في عصرنا هذا الثقافة الواسعة والوثوق من النفس والمغامرة والتضحية في سبيل فكرة وهذه هي الرجولة الحقة التي يلمسها الشباب واضحة الألوان والخطوط في حياة أبي الطيب وشعره

سامي الكيالي

من حكم المتنبي

صـــــحب النـــــاس قبلنـــــا ذا الزمانـــــا
وعنـــــاهم في شـــــأنه مـــــا عنانـــــا
وتولـــــوا بغصـــــة كلـــــهم مـــــن
ه وأن ســـــــر بعضـــــــهم أحيانـــــــا
ربمـــــا تحســـــن الصـــــنيع ليـــــالي
ه، ولكـــــن تكـــــدر الإحســـــانا
وكأنـــا لم يـــرض فينـــا بريـــب الـــدّ
هـــــر حتـــــى أعانـــــه مـــــن أعانـــــا
كلمـــــا أنبـــــت الزمـــــان قنـــــاة
ركـــــب المـــــرء في القنـــــاة ســـــنانا

ومـــــراد النفـــــوس أصـــــغر مـــــن أن

نتعـــــــــادى فيـــــــــه وأن نتفـــــــــانى

غـــــير أن الفتـــــى يلاقـــــي المنايـــــا

كالحـــــــات ولا يلاقـــــي الهوانـــــا

ولـــــو أن الحيـــــاة تبقـــــى لحـــــيّ

لعـــــــددنا أضـــــــلنا الشـــــــجعانا

وإذا لم يكـــــن مـــــن المـــــوت بـــــد

فمـــــن العجـــــز أن تكـــــون جبانـــــا

كـــل مـــا لم يكـــن مـــن الصـــعب في الأن

فـــــس ســـــهل إذا هـــــو كانـــــا

من نوادر أبي الطيب

بقلم الأستاذ عيسى اسكندر المعلوف

كان لابن جنى هوى في أبي الطيب وكان كثير الإعجاب بشعره وقد شرحه شرحاً مطولاً. وكان يسؤوه إطناب أبي على الفارسي في الطعن عليه. واتفق أن قال أبو علي يوماً: اذكروا لنا بيتاً في الشعر نبحث فيه. فابتدر ابن جنى وأنشد:

حلت دون المزار فاليوم لوزر ت لحال النحول دون العناق

فاستحسنه أبو علي واستعاده وقال: لمن هذا البيت فإنه غريب المعنى؟ فقال له ابن جنى: هو الذي يقول:

ازورهم وسواد الليل يشفع بي وأنثنى وبياض الصبح يغرى بي

فقال: والله وهذا أحسن فلمن هو؟. قال الذي قال:

امضى ارادته فسوف له قد واستقرب الأقصى فثم له هنا

فكثر إعجاب أبي علي واستغرب معناه وقال: لمن هذا؟ فقال للذي قال:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى

مضر كوضع السيف في موضع الندى

فقال: هذا والله أحسن، ولقد أطلت يا أبا الفتح، فمن هذا القائل؟ قال ابن جنى: هو الذي لا يزال الشيخ يستثقله ويستقبح زيه وفعله. وما علينا من القشور إذا استقام اللباب!

قال أبو علي: أظنك تعني المتنبي؟ قال: نعم. فقال: والله لقد حببته إلي ونهض ودخل على عضد الدولة، فأطال في الثناء على أبي الطيب. ولما اجتاز به استنزله إليه واستنشده وكتب عنه أبياتاً من شعره.

وقال ابن خلكان في كتابه "وفيات الأعيان" نقلاً عن شرح ابن جنى لشعر المتنبي ما نقصه:

"سأل شخص أبا الطيب المتنبي عن قوله: "باد هواك صبرت أم لم تصبرا"

"فقال: كيف أثبت الألف في (تصبرا) مع وجود لم الجازمة وكان من حقه أن يقول: "لم تصبر"؟ فقال المتنبي: لو كان أبو الفتح (يريد ابن جنى) ههنا لأجابك (يعنيني)

"وهذه الألف هي بدل من نون التأكيد الخفيفة. كان في الأصل لم تصبرن ونون التأكيد الخفيفة إذا وقف الإنسان عليها أبدل منها ألفاً قال الأعشى: "ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا" وكان الأصل فاعبدن فلما وقف أتى بالألف بدلاً"

وقال أبو الفداء المؤرخ الحموي:

"قصد كافور الأخشيدي المتنبي ومدحه. وحكى المتنبي قال: كنت إذا دخلت على كافور أنشده يضحك لي ويبش في وجهي إلى أن أنشدته:

ولما صار ود الناس خباً جزيت على ابتسام بابتسام

وصرت أشك فيمن اصطفيه لعلمي أنه بعض الأنام

"قال: فما ضحك بعدها في وجهي إلى أن تفرقنا. فعجبت من فطنته وذكائه"

وروى بعضهم: أن المتنبي رحل إلى العراق بعد خدمته لسيف الدولة بن حمدان في حلب. فأقام في البرية وسئل عن ذلك فقال: "إن بني حمدان كدروا خاطري فجئت أريحه"

وقال ياقوت الرومي الحموي في كتاب "معجم الأدباء":

"ومن خطه (أي من خط أبي علي إبراهيم بن هلال الصابئ) حدثني والدي أبو أسحق قال: راسلت أبا الطيب المتنبي رحمه الله في أن يمدحني بقصيدتين وأعطيه خمسة آلاف درهم ووسطت بيني وبينه رجلاً من وجوه النجار. فقال: قل له والله ما رأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك ولا أوجب علي في هذه البلاد أحد من الحق ما أوجبت، وإن أنا مدحتك تنكر لك الوزير يعني أبا محمد ؟؟؟؟ وتغير عليك لأنني لم أمدحه. فإن كنت لا تبالي هذه الحال، فأنا أجيبك إلى ما التمست وما أريد منك مالاً ولا عن شعري عوضا. قال والدي: فتنبهت على موضع الغلط وعلمت أنه قد نصح فلم أعاوده"

وقال ياقوت أيضاً:

"وكان أبو العلاء المعري يتعصب للمتنبي ويزعم أنه أشعر المحدثين ويفضله على بشار ومن بعده مثل أبي نواس وأبي تمام. وكان المرتضى يبغض المتنبي ويتعصب عليه. فجرى يوماً بحضرته ذكر المتنبي فتنقصه المرتضى وجعل يتبع عيوبه. فقال المعري: لو لم يكن للمتنبي من الشعر إلا قوله:

"لك يا منازل في القلوب منازل"

لكفاه فضلاً، فغضب المرتضى وأمر فسحب برجله وأخرج من مجلسه. وقال لمن بحضرته: أتدرون أي شيء أراد الأعمى بذكر هذه القصيدة؟ فإن للمتنبي ما هو أجود منها لم يذكرها. فقيل النقيب السيد اعرف، فقال: أراد قوله في هذه القصيدة:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص

فهي الشهادة لي بأني كامل

عيسى اسكندر المعلوف

حياة المتنبي

حياة متعبة ممزوجة بالدم

بقلم الأستاذ شفيق جبري

لم يخلق المتنبي لهذه الطبقات من الناس الذين يرغبون في هدوء الحياة، ويفتشون عن راحة الفكر ونعمة البال، فالعيون الرقيقة التي تؤذيها حمرة الدماء، والآذان الناعمة التي يؤلمها صهيل الخيل وقعقعة اللجم وصرير العوالي، والقلوب اللينة التي تخشى مغالبة الأيام ومطاعنة الدهر، لا تأنس بشعر المتنبي، ولا تنعم بمطالعته. إن هذه الطبقة من الناس التي تحاول أن تعيش في عزلة عن كل مغامرة في الحياة تفر من شعر المتنبي وتستوحش منه، فإن بينه وبينها آفاقاً مديدة، فقلوب أهلها لا تخفق خفقان قلبه. فإن شعره يضجرهم ويقلقهم.

قضى أبو الطيب حياته كلها في المغامرات والمنازعات فكانت هذه الحياة سلسلة شدائد. فالمتنبي لم يخلق للحياة الهادئة الذليلة وإنما خلق لحياة الدوى ولحياة العز. فالذين يريدون أن تكون عيشتهم سالمة من كل ضيم بعيدة عن كل ذل، فإنهم يأنسون بشعر المتنبي فلا يبالون بتعب الأجسام وسفك الدماء ولا يحفلون بإبر النحل دون الشهد خلق المتنبي لهذ الطبقة من الناس الذين يهون عليهم رزء جسومهم في سلامة عقولهم وأعراضهم فلا يحتملون الأذى ولا يغبطون الذليل، يأخذون من هذه الدنيا ما يمكنهم أخذه زاهدين في كل زق وفي كل قينة، راغبين في الفتكة البكر وضرب أعناق الملوك. خلق المتنبي لهذه الطبقة في الأمم التي لا تكسب المجد إلا من تضارب السيوف ومن سنان الرماح. خلق لهذه الأمم التي تقاتل في سبيل العلى وفي سبيل السلم وتبني مملكتها على الأسل وتطلب حقوقها بالطعن والضرب لأن الدنيا لمن غلب.

هذه هي الحياة التي أعد لها المتنبي. إنها لحياة ممزوجة بالدم بعيدة عن الهدوء والسكينة مملوءة بالقلق والاضطراب كلها نزاع وكلها غلاب. إن الحياة التي يريدها أبو الطيب

إنما هي حياة القوة: قاتل غالب، هذا هو الهدف الأعلى الذي يرمي إليه المتنبي.

ولكن هل عاش أبو الطيب هذه العيشة التي وصفها في شعره؟ هل قلق هذا القلق؟ هل اضطرب هذا الاضطراب في حياته؟ أو على تعبير أدق هل كان بين حياة المتنبي الخاصة وبين شعره شيء من التناسب؟

لست أعلم حياة ملئت بالجهاد من أولها إلى آخرها مثل حياة المتنبي. كان في أول أمره في خشونة من عيشه ورقة من حاله يعوزه كل شيء الناعم من الملابس والكريم من المطايا، فقد توفي أبوه فقيراً فضرب أبو الطيب في مناكب الشام التماساً للرزق وجال في البوادي والحواضر، ولم يكن له من المطايا إلا النعل والخف ولا من اللباس إلا القطن الخشن. ومع هذا كله ما كان يخلو من حسد الحساد وشماتة الشامتين وكيد الكائدين.

وما زال على هذه الحال حتى اتصل بسيف الدولة فغرق في مكارمه الباهرات فكان سيف الدولة يعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار ما عدا الخيل والجواري والخلع والجوائز والاقطاعات. ولكن نعمة مثل هذه النعمة لم تنج أبا الطيب من

حسد الحساد وكيد الكائدين لأنه زاحم في حضرة سيف الدولة غيره من الشعراء على هذه النعم حتى مات بعضهم حسداً. فلئن شكا أبو الطيب الحسد وهو في خشونة من العيش فاخلق به أن يضجر من الحسد وهو يتقلب في ظلال النعيم. فصعب حينئذ على المتنبي أن يواظب على باب سيف الدولة: الشعراء يحسدونه ويوقعون فيه ويضربونه، وسيف الدولة يهزأ به ويعبث، فإنه لم يصن عرض المتنبي ولا سلمت نعمته عليه من المنّة والأذى.

ترك المتنبي سيف الدولة وانحدر إلى دمشق ثم إلى الرملة واتصل بأميرها الحسن بن طغج فهدده جماعة علويون فما كاد يسلم من حاشية سيف الدولة حتى أثاره وعيد آخر فكان بينه وبين المصائب صلة رحم.

غادر الرملة وقدم على كافور الاخشيدي فأمر له بمنزل ووكل به جماعة وأظهر التهمة له وطالبه بمدحه ثم وقعت الوحشة بينهما فوضع عليه العيون والأرصاد خوفاً من أن يهرب، وأحس المتنبي بالشر، ولم يخل أبو الطيب وهو في ظلال كافور من جماعة كانوا يغضبونه ويوغرون صدر كافور، فما أشبه ما كان يقع له وهو عند كافور بما كان يقع له وهو عند سيف الدولة من ابتغاء الغوائل به.

فلم يلبث بعد هذا كله أن عجل الرحيل فضرب في البوادي متوجهاً نحو الكوفة. وتنكر له عبيده في الطريق وفسدت نياتهم وأخذوا يسرقون الشيء بعد الشيء من رحله ولكنه نجا منهم إلى أن بلغ الكوفة. فتحركت نفس سيف الدولة فأنفذ إليه ابنه من حلب ومعه هدية وطمع في رجوعه إلى ظله ولكن أبا الطيب اعتذر من العودة إلى سيف الدولة خوفاً من الوشاة.

ثم ترك الكوفة وسار إلى بغداد فثقلت وطأته في دار السلام على أهل الأدب ووقع بينه وبين أبي علي الحاتمي ما وقع، ولما نجا من شر أبي علي أصابه شر الوزير المهلبي وشر معز الدولة نفسه ونال شعراء بغداد من عرضه وتبارزوا في هجائه وأسمعوه ما يكره وتماجنوا به وتنادروا عليه.

فاتخذ الليل جملاً وفارق دار السلام قاصداً إلى حضرة ابن العميد، فورد أرجان وأحمد مورده، ثم ترك ابن العميد وسار إلى أبي شجاع عضد الدولة. وكان الصاحب بن عباد طمع في زيارة المتنبي إياه بأصبهان وأجرائه مجرى مقصوديه من رؤساء الزمان وكتب إليه يلاطفه في استدعائه وضمن له مشاطرته جميع ماله، فلم يقم المتنبي له وزناً ولم يجبه عن كتابه ولا إلى مراده، فاتخذه الصاحب غرضاً يرشقه بسهام

الوقيعة ويتتبع عليه سقطاته في شعره وهفواته وينعى عليه سيئاته.

لم يعرج أبو الطيب على حضرة الصاحب وإنما قصد عضد الدولة بشيراز فانجحت سفرته وربحت تجارته بحضرته ووصل إليه من صلاته أكثر من مائتي ألف درهم. واستطاب المتنبي الإقامة ببابه ثم استأذنه في المسير عنه ليقضي حاجات نفسه ثم يعود فأذن له وأمر بأن تخلع الخلع الخاصة ويقاد إليه الحملان الخاص وتعاد صلته بالمال الكثير. ولكنه لما سار من حضرة عضد الدولة ومعه ابنه محسد وغلامه ومعه بغال موقرة بكل شيء من الذهب والفضة والطيب والتجملات النفيسة والكتب الثمينة والآلات تعرض له قوم من بني ضبة فقتلوه بعد أن قاتل قتالاً شديداً.

هذه خاتمة حياة المتنبي

ولكني لم ألخص هذه الحياة المتعبة إلا لأجعل صلة بينها وبين شعر المتنبي فإذا نظرنا في طائفة من شعر المتنبي تبين لنا أن بين حياته الخاصة وبين هذا الشعر كثيراً من التناسب، فمعظم شعر المتنبي يكاد يكون صورة هذه الحياة التي ملئت بالتعب والقلق والاضطراب. لم تكن الحياة في نظر أبي الطيب حياة هدوء وراحة. فالذين يريدون أن يعيشوا هذه العيشة التي

وصفها المتنبي ينبغي لهم أن يهيئوا أنفسهم لكثير من الجهاد. جاهد المتنبي في حياته فزاحم ونازع وطاعن فكانت هذه الحياة المملوءة بالجهاد والمزاحمة والمنازعة والمطاعنة ملء شعره، فهو لم يصف هذا النوع من العيشة إلا بعد أن جربه وقاسى أهواله ولقي منه مالقي فالحياة التي يريدها أبو الطيب إنما هي الحياة السالمة من كل راحة ومن كل ضيم، وإذا وازنا بين حياته الخاصة وبين فلسفته في الحياة وجدنا صلة وثيقة بين هذين النوعين، إنه لم يذق الراحة كل عمره. وإنه لم يتحمل الضيم في ظلال سيف الدولة ولا تحمله في ظلال كافور ولا تحمله في ظلال الوزير المهلي، فالمتنبي يعرض لنا في شعره نمطا من تعب الحياة وجهدها ثم يضرب لنا مثلاً لهذا النمط. أما هذا المثل فهو حياته الخاصة من مبادئها إلى خواتيمها. علام نخاف الموت فقد يقتل العاجز وهو آمن في سربه؟ والمتنبي لم يخف الموت حتى في الأيام التي تفتر فيها الأعصاب ويميل الإنسان إلى الهدوء. فقد قاتل لما تعرض له بنو ضبة القتال الجديد فلم يجبن ولم يهرب

ما أتعب حياة المتنبي!

شفيق جبري

إذا كنـــت ترضـــى أن تعـــيش بذلـــة

فـــلا تســـتعدن الحســـام اليمانيـــا

فمـــا بنفـــع الأســـد الحيـــاء مـــن الطـــوى

ولا تتقـــي حتـــى تكـــون ضـــواريا

الوصف في شعر المتنبي

بقلم الأستاذ أنيس مقدسي

"..إن المتنبي برغم بعض سقطاته شاعر عظيم. نعم إنه لم ينصرف خاصة إلى الوصف، ولكن شعره عموماً وصف بليغ لعواطفه ولمناقب ممدوحيه وأحوالهم. وهو يمتاز بدقة التعبير عن الحركات والنزعات.."

الوصف نوعان حسي وخيالي تقف إلى نهر في واد كبير وترى تدفق المياه بين تلك الشواهق العظيمة فتأخذك روعة المنظر وتستفز فيك الميل إن كنت شاعراً إلى وصف ما تراه من جمال وجلال. فإذا أنت تصف أسناد الوادي وما عليها من الأشجار والكروم. وتصف تلك الصخور القائمة وانقضاض الماء من بينها، وقد ترسم ما يتراءى لك في ذلك الوادي من ألوان تلقيها عليه ظلال المساء أو أشعة الفجر. وربما تعديت ذلك إلى ما تراه من حيوان هناك قطعان البقر أو الغنم ترعى في المروج أو الحقول ولعلك ترى الفلاح يحرث الحقل، أو تنظر إلى السماء فترى قطع الغمام يسوقها راعي الريح، أو قوافل

الضباب تنيخ فوق قمم الهضاب. يؤثر كل ذلك فيك فترسمه بألوان خلابة تستفز في القارئ عواطف الطرب، وتحبب إليه رؤية تلك المشاهد، وهو ما نسميه الوصف الحسي وهو أن تصور لسواك ما استفز فيك عوامل الاستحسان من المحسوسات على اختلاف أشكالها وألوانها.

أما الوصف الخيالي فنظر فني إلى ما وراء المحسوسات، فإذا كان الشاعر واسع الخيال لا يقف عندما يقع تحت حسه فقط، بل يتعداه إلى مناطق يفتتحها أمامه الخيال، فيجعل المرئيات أساساً لغير المرئيات، ويولد من المحسوسات صوراً مجردة يرسمها للبشر تأملات وذكريات. يقف مثلاً في قلب الوادي فيسمع فيه نبضات الحياة ويمر أمامه على صفحات الماء حوادث التاريخ فيذكر الأمم الغابرة والوقائع الماضية، ويستخلص من ذلك عبر الأيام وعلاقتها بازدهار المدنيات واندثارها وما إلى ذلك مما يستخدم فيه الحس توصلاً إلى صور الخيال البعيدة.

وإذا تأملت شعر المتنبي وجدته كأكثر الشعر العربي معنياً بالوصف الحسي دون الخيالي. ويتناول المناقب البشرية والمشاهد الطبيعية والعمرانية ووقائع الحرب والفروسية. وهو عادة دقيق جيد الديباجة يثير العاطفة ويبهجها.

ولنتقدم الآن إلى النظر في رسومه الشعرية المختلفة

المناقب البشرية

ويدخل فيها المديح والغزل والفخر. أما المديح (مدح الحي أو رثاء الميت) فمذهبه في أكثر قصائده ولا يخرج فيه عما ذهب إليه سواه من وصف مكارم الممدوح، وذكر أعماله وصفاته، سداه ولحمته الأطناب والمبالغة، فالممدوح هو المثال الأعلى في الشجاعة أو الكرم أو علو الهمة والإقدام على العظائم. ويصدق ذلك أيضاً على وصفه الغزلي. فإن القطع الغزلية التي يصوغها مقدمات لقصائد تدور على وصفه لشدة الوجد وأثره في المحب من سقم وسهاد وعناء وألم. وله في ذلك ما يعد فنياً من الطبقة الأولى كقوله في نظرة المحبوب:

يـــا نظـــرة نفـــت الرقـــاد وغـــادرت

في حـــد قلـــبي مـــا حييـــت فلـــولا

كانـــت مـــن الكحـــلاء ســـؤلي إنمـــا

أجلـــى تمثـــل في فـــؤادي ســـولا

ومن بديع فنه في هذا الباب:

بـــأبي الشـــموس الجانحـــات غواربـــا

اللابســـات مـــن الحريـــر جلابيـــا

المنهبـــــات عقولنـــــا وقلوبنـــــا

وجنـــــاتهن الناهبـــــات الناهبـــــا

حـــاولن تفـــديتي وخفـــن مراقبـــا

فوضـــعن أيـــديهن فـــوق ترائبـــا

وبســـمن عـــن بـــرد خشـــيت أذيبـــه

مـــن حـــر أنفاســـي فكنـــت الـــذائبا

أما وصفه الفخري فينم عن شخصية جبارة يجتمع فيها العنف والأنفة وطلب المعالي:

أهـــم بشـــيء والليـــالي كأنهـــا

تطـــاردني عـــن كونـــه وأطـــارد

وحيـــد مـــن الخـــلان في كـــل بلـــدة

إذا عظـــم المطلـــوب قـــل المســـاعد

وأورد نفسي والمهند في يدي

موارد لا يصدرن من لا يجالد

وفي فخره وصف دقيق لعواطف نفسه ولتأثير البيئة فيه، وقلما تجد شاعراً ترتسم خوالجه في شعره ارتسامها في شعر المتنبي. وما ديوانه ولا سيما الفخر والحكم فيه إلا مرآة تعكس لنا نفسية ذلك الشاعر الكبير ويبرزها في أجمل الألوان وأشدها تأثيراً في النفس. ولا يدانيه في ذلك إلا أبو تمام، ولكن المتنبي يفوقه في جمال التعبير وجلال المطلب ودقة النظر في الحياة

المشاهد الطبيعية والعمرانية:

ليس للمتنبي في هذا الباب ما لسواه من الوصافين. والغريب أنه اختبر حياة البادية والحضر فجاب السهول والجبال وتقلب في شتى الأمصار، ومع ذلك لا نرى أن مناظر الطبيعة والعمران من أنهار وبحار وجبال وقفار ورياض وقصور وآثار قد أثارت قريحته ودفعته إلى التمتع بوصفها. فها هو مثلاً يمر بلبنان ويرى ما فيه من شواهق ووهاد، وما وهبته الطبيعة من جمال يخلب الألباب فلا يذكره إلا عرضاً إذ يقول للممدوح:

بـــــيني وبـــــين أبـــــي علـــــي مثلـــــه

شـــــم الجبـــــال ومثلـــــهن رجـــــاء

وعقـــــاب لبنـــــان وكيـــــف بقطعهـــــا

وهـــــو الشـــــتاء وصـــــيفهن شـــــتاء

لـــــبس الثلـــــوج بهـــــا علـــــى مســـــالكي

فكأنهـــــا ببياضـــــها ســـــوداء

والوصف هنا جميل ولكنه غير كاف للدلالة على ميل خاص في الشاعر إلى وصف الطبيعة وعرف دجلة والفرات واتحادهما بشط العرب العظيم، ورأى إلى كل ذلك كثيراً من المناظر الخلابة، والمشاهد المثيرة للشعور، وليس له مع كل ما عرف ورأى وصف يذكر إلا بضعة أبيات في شعب بوان نظمها في وصف طريقه إلى شيراز فقال منها:

غـــــدونا تـــــنفض الأغصـــــان فيهـــــا

علـــــى أعرافهـــــا مثـــــل الجمـــــان

فســـــرت وقـــــد حجـــــبن الحـــــر عـــــني

وجـــــئن مـــــن الضـــــياء بمـــــا كفـــــاني

وألقـــــى الشـــــرق منهـــــا في ثيـــــابي

دنـــــــانيرا تفـــــــر مـــــــن البنـــــــان

لهـــــا ثمـــــر تشـــــير إليـــــك منـــــه

بأشـــــــــربة وقفـــــــــن بـــــــــلا أوان

وأمـــــــواه تصـــــــل بهـــــــا حصـــــــاها

صـــــليل الحلـــــى في أيـــــدي الغـــــواني

وقائع الحرب والفروسية

وهنا يبلغ شعره الوصفي أعلاه. فالمتنبي فارس، خاض غمرات الحروب وعرف وقائعها، فإذا وصف الكتائب وعراك الأبطال ساق الكلام على سجيته وجاء بالنظم الفائق. وهو يمتاز بتصوير الحركات وما يثيرها من نزعات، فإذا وصف معركة لم يكتف بذكر عظمة الجيوش ومعداتها الحربية بل نظر نظراً دقيقاً إلى حركات الفرسان ومضاء خيولهم كقوله:

تبـــارى نجـــوم القـــذف في كـــل ليلـــة

نجـــــوم لـــــه مـــــنهن ورد وادهـــــم

يطـــأن مـــن الأبطـــال مـــن لا حملنـــه

ومـــن قصـــد المـــران مـــالا يقـــوم

فهـــن مـــع الســـيدان في الـــبر عســـل

وهـــن مـــع النينـــان في البحـــر عـــوم

وهـــن مـــع الغـــزلان في الـــواد كمـــن

وهـــن مـــع العقبـــان في النيـــق حـــوم

ويجري مجرى الوقائع الحربية أعمال البأس في الإنسان والحيوان. وفيها أيضاً يظهر ميل المتنبي إلى وصف الحركة والنزعات الداخلية، وأهم ماله في ذلك تصوير الأسد في قصيدته لابن عمار وقد أصاب ابن الأثير إذ فضله في ذلك على البحتري فقال:

"إن معاني أبي الطيب أكثر عدداً وأسد مقصداً" وأساس هذا التفضيل أن المتنبي تفنن في ذكر الأسد فوصف صورته وهيئته ووصف أحواله في انفراده وفي هيئة مشيه واختياله، ووصف خلقه (من بخل وشجاعة) وشبه الممدوح به في الشجاعة وفضله عليه بالسخاء، ثم إنه عطف على ذكر الأنفة والحمية التي بعثت الأسد على قتل نفسه بلقاء الممدوح، وأخرج ذلك في أحسن مخرج وأبرزه في أشرف معنى".

وإذا تأملت كلام ابن الأثير في المتنبي رأيته محمولاً على ما ذكرناه لشاعرنا من وصف الحركات والأحوال والنفوذ إلى النزعات النفسية العميقة. فانظر كيف ينتقل من وصف هيبة الأسد ولونه وبأسه وعينيه ووحدته في الغاب إلى وصف حركاته فيقول:

يطأ الثرى مترفقاً من تيهه فكأنه آس يجس عليلا

ويرد عفرته إلى يافوخه حتى تكون لرأسه إكليلا

حتى إذا شاهد ابن عمار مقترباً منه:

ألقى فريسته وبربر دونها وقربت قرباً خاله تطفيلا

فتشابه الخلقان في إقدامه وتخالفا في بذلك المأكولا

وإليك هيئته وهو يستعد للوثوب:

ما زال يجمع نفسه في زوره

حتى حسبت العرض منه الطولا

ويدق بالصدر الحجار كأنه

يبغي إلى ما في الحضيض وصولا

ثم يلتفت الشاعر إلى نفسية الأسد فيصف جرأته بل تهوره وغروره ويقرن ذلك بحكمة عامة قرناً يمتاز به شعره فيقول:

وكأنـــــه غرتــــــه عـــــين فـــــادني

لا يبصــــر الخطـــب الجليـــل جلـــيلا

أنـــف الكـــريم مـــن الدنيئـــة تـــارك

في عينـــــه العــــدد الكـــثير قلـــيلاً

والعـــــار مضـــــاض ولـــــيس بخـــــائف

مـــن حتفـــه مـــن خـــاف ممـــا قـــيلا

ومن هنا يتقدم إلى وثبة الأسد الهائلة ومصادمة الممدوح إياه حتى:

خذلته قوته وقد كافحته   فاستنصر التسليم والتجديلا

قبضت منيته يديه وعنقه   فكأنما صادفته مغلولا

هذا الوصف الشائق الذي يتناول الحركات والأحوال، وينفذ إلى العواطف فيربطها برابطة الحكمة العالية، ويجعل من الحوادث عبر الحياة الخالدة، هو الأسلوب العالي الذي عرف به المتنبي في تاريخ الأدب العربي.

والخلاصة أن المتنبي برغم بعض سقطاته شاعر عظيم. نعم إنه لم ينصرف خاصة إلى الوصف، ولكن شعره عموماً وصف بليغ لعواطفه ولمناقب ممدوحيه وأحوالهم. وهو يمتاز بدقة التعبير عن الحركات والنزعات، ولا بدع فحياته كلها حركات ونزعات. وأحسب أنه لو انصرف إلى وصف الطبيعة والعمران لكان له من القلائد ما يعد من مفاخر الشعر

أنيس مقدسي

أبو الطيب في مصر
نبي في بلاد الوحي لا يوحى إليه

بقلم الأستاذ محمد شوكت التوني

كانت حالة مصر الاجتماعية والسياسية في ذلك العصر على أسوأ ما تكون حالات الأمم في عصور الانحلال. فكانت الدولة العباسية قد طال بها الزمن وبدلت بعد منعتها تفككاً وبعد عزتها ذلة. وأدبرت عنها الدنيا وهانت سطوتها. وولى الموالي الأقطار. وأي شر على الأمم وأي المصائب على الدول أعظم من أن يحكمها العبيد ويسودها الأذلاء؟

وكانت مصر قد آلت ولايتها إلى محمد بن طغج بعد أن وليها بعض الموالي أمثال أبي منصور تكين الخزري وأحمد بن كيغلغ، ومحمد بن كغج وإن لم يكن من الموالي، وهو من نسل ملوك فرغانة إلا أنه لم يكن الكفء لولاية مصر وقد

استقل بها بعد قليل عن الخلافة العباسية. ولما انتهى أمره بالوفاة وتولي بعده أبو قاسم أنوجور ابنه وكان صغيراً قام كافور بتدبير الدولة عنه وكذلك لما توفي أبو قاسم وتولى أخوه أبو الحسن علي وكان صغيراً قام بتدبير الملك كافور فلما مات أبو الحسن استقل كافور بالملك.

من هو كافور

اختلفت أقوال الرواة في كافور وقد اجمعوا أولاً على أنه كان عبداً خصياً وأنه كان من موالي محمد بن طغج الأخشيد ولكن بعضهم أقذع في ذمه ووضعه.

على أن المعقول استقراء ومنطقاً أن يكون كافور قد وصل إلى تدبير الملك في عهد الملكين الصغيرين عن جدارة حقة خاصة، وقد روى أن محمد بن طغج قد ولاه قيادة الجيش الذي أرسله لمقاتلة سيف الدولة في عام 333ه عند مهاجمته لحمص ودمشق في سوريا وكذلك تولى قيادة الجيش الذي حارب سيف الدولة عندما استولى على دمشق في ولاية أبي قاسم وانتصر على سيف الدولة فليس عبداً عادياً ذلك الذي لا يجد محمد بن طغج من هو أكفأ منه لقيادة الجيش ومحاربة سيف الدولة. وليس عبداً عادياً الذي يدبر أمر مصر من 334ه

إلى 357 أي نحو ثلاث وعشرين سنة إذن لابد أن يكون كافور شخصية كبيرة فيها ذكاء ومضاء وقوة وهمة وطموح وحزم وعزم. والذي عرف عنه أنه قد كان معنياً بالعلم والأدب. وكان من عنايته أن بعث في استقدام "أبي الطيب المتنبي إلى مصر".

استقدام المتنبي:

وكان الثرى قد جف بين المتنبي وسيف الدولة إذ بقي يمدحه وهو ملازمه مدى تسع سنوات وكان يؤمل أن يقطعه ولاية يتولى أمرها. وقد كان المتنبي بعيد المطامع يرمي بآماله إلى مدى واسع في الحياة. فقد نشأ نشأة وضيعة. وكان أبوه سقّاء. فتعلم ونبغ وتلفت حوله فلم يجد له نداً. وقيل إن إعجابه ببلاغته قد جعله يدعي النبوة وقيل إنه وضع كتاباً وجعله "قرآناً".

وإلى هذا الإعجاب بأدبه كان يظن نفسه قد خلق لمهمة اجتماعية سياسية فكان يكثر من وصف نفسه بالشجاعة. ومن قوله في ذلك:

ومهمه جبته على قدمي تعجز عنه العرامس الذلل

بصـــارمي مرتـــد بمخبرتـــي مجتـزئ بـالظلام مشـتمل

في سعة الخـافقين مضـطرب وفي بـلاد مـن أختهـا بـدل

وكان لإعجابه بنفسه وإعدادها لمهمة عظمى يصد عن مجالس اللهو وكان جاداً لا يعرف المجون ولا يتنزل إلى ما يتنزل إليه غيره من الشعراء الذين أثر عنهم ذلك. كما أنه لم ينصرف إلى الحب والغزل. وكان يكثر من الفلسفة والحكم في غزلياته والعهد في الحب أنه قليل الصلة بالحكمة والفلسفة! كل ذلك لأنه كان يطلب مطلباً في الحياة عظيماً حتى قال:

يقولـــون لـــي مـــا أنـــت في كـــل بلـــدة؟

ومـــا تبتغـــي؟ مـــا ابتغـــى جـــل أن يســـمى

فالذي جل أن يسمى من مطلبه أما النبوة أو الخلافة. أو على الأقل الإمارة!

ولم لا! وقد كان يرى الموالي العبيد تحكم البلاد وتقوم على ولاية أعمال الخلافة. وهل العبيد أجدر منه وأكثر كفاءة وأسمى همة وأشد استحقاقاً وهو الذي لا يرى في الوجود من يدانيه أو يماثله؟ إذاً فقد طمع المتنبي من سيف

الدولة في أكثر من المال فلم يوفق فتركه إلى دمشق وكان بها رجل يهودي من أهل تدمر يعرف بابن ملك يقوم بأمور كافور الأخشيدي فيها فسأل المتنبي أن يمدحه فثقل عليه ولم يفعل. فغضب اليهودي وجعل كافور يكتب في طلب المتنبي فكتب إليه بذلك فقال المتنبي: "لا، لا أقصد العبد وإن دخلت مصر فما قصدي إلا ابن سيده" ثم ذهب بعد حين إلى الرملة فأرسل إليه كافور رسولاً يستقدمه. ولا ريب عندي أن هذا الرسول قد ألقى في روع المتنبي أنه إذا سافر إلى مصر فإن الطريق إلى ولايتها أو الإمارة على ولاية منها قريب غير بعيد بدليل أن المتنبي بعد امتناعه الطويل أسرع بعد لقاء الرسول إلى لقاء كافور يحمل إليه الخرد من القصائد التي لا نظير لها في المدح ويقول له كاذباً إنه كان مشتاقاً إلى رؤيته وكان يرجو هذا اللقاء:

أبا المسك ذا الوجه الذي كنت تائقا

إليه وذا اليوم الذي كنت راجياً

مع أن حقيقته قد كشفته وخديعته قد وضحت من مطلع قصيدته التي لاقى بها كافوراً إذ قال:

كفـــى بـــك داء أن تـــرى المـــوت شـــافياً

وحســـــب المنايـــــا أن يكـــــن أمانيـــــا

فلقـد كـان الألم يمضـه لاضـطراره إلى الرحيـل إلى كـافور. ويحسـب بينـه وبـين نفسـه أنهـا سـخرية مـن القـدر أن يركـب ذلـك المركـب الصـعب فينـزل مـن عليائـه إلى أسـفل موضع فيمدح عبداً خصياً! لا يداني في رأيه الثرى الذي تطأ قدمه بل إنه يجد في ذلك الموت.

أبو الطيب في مصر:

نزل أبو الطيب وادي النيل، كنانة الله في أرضه، حيث الجنة الغلباء، التي تنضر وجه الأرض والتي تقف بسمة وضاءة في فم الدهر. ووطئ الوادي الخصيب، الزمردة الخضراء حيث الـزرع واضـح النضـج قـوى العـود، والنيـل يشـق الـوادي ميمـون الغـدوات، مبـارك الروحـات، يمثـل القـوة والعظمـة والجمـال والجلال والرحمة.

إلى هـذا الجمـال والجـلال ذكريـات مـاض منسـوجة علـى رقعة من بلاد الوادي. وعلى كل صفحة من صفحات التاريخ. كل هذا عاش فيه أبو الطيب المتنبي ورآه بعينه وتمتع به من

نواحي حواسه ولمسه، وتذوقه، فما حرك له شاعرية، ولا أثار منه العبقرية، ولم ينبض له عرق فيه، ولا اهتزت له نقطة من دمه، ولا مال إليه شعاع من فكره، ولا طوف حوله شارد من خياله!

فيا للعجب! كيف تحيا العبقرية في بلاد الوحي ولا تثور ولا تنتج ولا تفيض؟ كيف يعيش البلبل في الروض الأنيق وتحت ضوء القمر ولا يرسل الأغاني صعداً في السماء كالسحر أو أبلغ موقعاً؟ كل هذا يفسره أمر واحد وهو أن المتنبي جاء إلى مصر غازياً طامعاً مطالباً ولم يدخلها شاعراً. والدليل على ذلك أنه ترك كل ما في مصر من جمال وجلال، وكرس وقته لا قبح ما فيها ومن فيها. فقال في كافور:

ولكن بالفسطاط بحراً أزرته
حياتي ونصحى والهوى والقوافيا

ثم علا به إلى أسمى ما يصل إليه وصف الكريم فقال:

قواصد كافور توارك غيره
ومن قصد البحر استقل السواقيا

وفي هذه القصيدة لمح المتنبي بما في نفسه من مطمع فقال:

وغير كثير أن يزورك راجل فيرجع ملكا للعراقيين واليا

ويطول نفس أبي الطيب في مدح كافور. ويقول كل يوم. فيقلب الحقائق ويهاجم قدرة الخالق سبحانه. ويغير من أصول الطبائع ويكذب. ويكذب ويضاعف كذبه. وهو أعرف الناس بأنه يكذب. ولكن الطمع يذل أعناق الرجال. ويظهر له المتنبي في مظهر المهمل غير المترث لمطلبه فيذكره بأمره مادحاً نفسه مزكياً كفاءته مبيناً فضائله. مقدماً مستنداته! فيقول:

وإنـــي لـــنجم تهتـــدى صـــحبتي بـــه

إذا حـــال مـــن دون النجـــوم ســـحاب

وأصـــدى فـــلا أبـــدى إلى المـــاء جاجـــة

وللشـــمس فـــوق الـــيعملات لعـــاب

وللســـــر مـــــني موضـــــع لا ينالـــــه

نـــــديم ولا يفضـــــي إليـــــه شـــــراب

وإلى هنا لا يطيق المتنبي سكوتاً ولا يستطيع صبراً، فيصارح كافوراً بما في نفسه قائلاً:

وهل نافعي أن ترفع الحجب بيننا
ودون الذي أملت منك حجاب
وفي النفس حاجات وفيك فطانة
سكوتي بيان عندها وخطاب

ولكن كافوراً لا يسمع لهذا الناتج. فيقول له أخيراً قولة الخائب ويصيح به صيحة اليائس:

أمولاي هل في الكأس فضل أناله
فإني أغنى منذ حين وتشرب

غير أن كافوراً ظل "يشرب" ولم يصغ إلى غناء المتنبي فسكت هذا عن التغني!

وجرى الواشون بالوشاية. وبلغ الياس من نفس المتنبي منتهاه فلما وجد فرصة لدى أبي شجاع فاتك مدحه فأجزل له العطاء. ولكن ذلك لم يدمل الجرح الناغر. فهرب المتنبي من مصر. وقبل أن يخطو خطوة خارج حدود الديار أقذع في هجو كافور بقصيدته المشهورة:

عيـــد بأيـــة حـــال عـــدت يـــا عيـــد

بمـــا مضـــى أم لامـــر فيـــك تجديـــد

أمـــــا الأحبـــــة فالبيـــــداء دونهـــــم

فليـــت دونـــك بيـــدا دونهـــا بيـــد

ويذكر أبو الطيب إنه دخل مرة فوجد كافوراً حافياً ورأى شقوقاً في قدميه فقال قصيدته المعروفة. ولعله في الحقيقة اخترع مسألة شقوق القدمين زيادة في التشنيع والنكاية:

أريـك الرضـا لـو أخفـت الـنفس خافيـاً

ومـا أنـا عـن نفسـي ولا عنـك راضـيا

أمينـــاً واخلافـــاً وغـــدراً وخســـة

وجبنـــاً أشخصـــاً لحـــت لـــي أم مخازيـــا

وتعجـــبني رجـــلاك في النعـــل أنـــني

رأيتـــك ذا نعـــل إذا كنـــت حافيـــاً

ويظهر أنه تنبه إلى هذا الخلط. والإسفاف المشين وهذا الانحطاط الخلقي الفظيع. بين تناه في المدح وإسراف في الذم فأراد أن يعلل ذلك فقال:

أخذت بمدحه فرأيتُ لهواً مقالي للاحيمق يا حليم

ولما أن هجوت رأيت عياً مقالي لابن آوى يا لئيم

وهكذا ترى ذلك الشاعر العبقري دخل مصر طامعاً يسيل لعابه وتطوف برأسه أحلام. فنسى قدره ونزل عن مكانته وبذل كل ما في وجهه من ماء رخيصاً وأغمض جفنيه عما حواليه من مرئيات. واعتنق دين الكذب والنفاق فمدح كافوراً حتى جعله إلهاً يصرف الريح والشمس.

وجعل قبحه وحسن عيوبه وزين مساوئه. فلما لم يصب عنده مطلبه هوى به إلى أحط ما ينزل القادح بخصمه فجعله أقبح من في الحياة وألأمهم بعد أن سبق فجعله الكمال في صورة إنسانية!

محمد شوكت التوني

الحياة الفنية في عصر المتنبي
ماذا بقى من آثارها

بقلم الأستاذ حسن محمد الهوارى

الأمين بدار الآثار العربية

عاش المتنبي في النصف الأول من القرن الرابع الهجري وكانت الدولة العباسية في القرنين الثاني والثالث الهجريين قد بلغت من الحضارة أقصاها واستنفدت كل قواها حتى بلغت الغاية في جميع فروع الفنون والآداب والعلوم. ثم أخذت منذ أوائل القرن الرابع الهجري تتفكك أجزاؤها ويستقل الولاة بالأقاليم النائية عن مركز الخلافة استضعافاً للخلفاء. وكان الأمراء والوزراء بل والموالى يخلعون الخلفاء ويولون من يتوسمون فيهم الضعف ليبقى الأمر في أيديهم، فكانت الدولة العباسية في هذا العهد دولة عجيبة الوضع، فبينما ترى الخليفة العباسي

منكمشاً في قصره لا يملك من الأمر شيئاً ترى أمراء دولة بني حمدان على حدود بلاد الروم في حرب سجال. ومع استقلال أمرائها عن الخلافة فإنهم كانوا يدافعون عن الإسلام باستبسال وشجاعة. وكان الخلفاء يعقدون لهم الألوية ويخلعون عليهم الخلع ويلقبونهم بسيف الدولة وناصر الدولة نظراً للوظيفة التي كانوا يؤدونها من مرابطتهم على الثغور ودفاعهم عن الدولة وقيامهم بالحروب توغلاً في البلاد الأجنبية. ثم ترى دولة بني بويه تستقل بفارس وقد خلع الخلفاء على أمرائها وقلدوهم الوزراء والإمارة ولقبوهم بعماد الدولة وعضد الدولة وركن الدولة، كأن الدولة كانت قائمة بهم وعليهم مع أنهم شيعة متعصبون لمذهبهم وهم أول من أحيي مأتم الحسين في يوم عاشوراء، أحياه معز الدولة في سنة 352ه فألزم الناس بإغلاق الأسواق ومنع الطباخين من الطبخ ونصبوا القباب وعلقوا عليها المسوح وأخرجوا النساء منشورات الشعور يقمن المأتم على الحسين بن علي رضي الله عنه، فكان هذا أول يوم وقعت فيه هذه العادة الشيعية في بغداد على مسمع ومرأى من الخليفة العباسي. ثم ترى الأخشيديين في مصر شبه مستقلين يتوارثون الحكم في أبنائهم بأمر من الخليفة العباسي.

عاش المتنبي في هذا العصر المضطرب واضطر أن يتصل بأمراء هذه الدولة المختلفة النزعات وأن يمدحهم بشعره إذا كانت علاقته بهم حسنة، وأن يهجوهم إذا غضبوا عليه أو غضب منهم. وكان أول اتصاله بسيف الدولة بن حمدان ثم بكافور الأخشيدي ثم بعضد الدولة بن بويه

وبالرغم من هذه الاضطرابات فقد كانت الحياة الأدبية في أوجع عزها وبلغ الشعر مبلغاً عظيماً. وكان المتنبي زعيم عصره، بل اتفق أهل الأدب على أنه لم ينبغ بعده في الشعر من بلغ شأنه أو داناه..

وقد قال الشعر في عصر المتنبي الرفيع والوضيع ويقال إن الخليفة العباسي الراضي بالله كان شاعراً محباً للعلماء وهو آخر خليفة له شعر مدون ومن شعره:

كل صفو إلى كدر كل أمن إلى حذر
ومصير الشباب لل موت فيه والكبر
در در المشيب من واعظ ينذر البشر
أيها الآمل الذي تاه في لجة الغرر
أين من كان قبلنا ذهب الشخص والأثر
رب فاغفر لي الخطي ئة يا خير من غفر

وقال الشعر في عصر المتنبي فقيه شافعي نظم قصيدة ذكر فيها أخبار العالم وقصص الأنبياء وسئل قبل موته كم بلغت قصيدتك إلى الآن؟ فقال: ثلاثين ألفاً ومائة بيت.

ولم يكن نظم الشعر في هذا العصر مقصوراً على الأمراء والمتعلمين بل أن أمياً يجهل القراءة والكتابة اسمه نصر بن أحمد أبو القاسم البصري اشتهر بالخبز أرزى لأنه كان يخبز خبز الأرز ليتكسب منه، كان ينشد الشعر في دكانه الذي كان يخبز فيه الأرز وكان الناس يزدحمون عليه لاستماع شعره ويتعجبون من حاله، ولجزالة شعره جمع له أحد الشعراء المعاصرين ديواناً عني بتدوينه ومن ظريف نظمه قوله:

رأيت الهلال ووجه الحبيب فكانا هلالين عند النظر

فلم أدر من حيرتي فيهما هلال الدجى من هلال البشر

ولولا التورد في الوجنتين وما راعني من سواد الشعر

لكنت أظن الهلال الحبيب وكنت أظن الحبيب القمر

ولم يقف انتشار الشعر في هذا العصر عند هذا الحد بل قيل في كل شيء وكتب على كل شيء ومن الغريب أن نعثر لأول مرة على شاهد قبر من هذا العصر في مجموعة الشواهد

المحفوظة في دار الآثار العربية بالقاهرة نقش عليه بيت من الشعر بدلا من الآيات القرآنية التي كانت تختار مناسبة للمقام أو للدعاية لتعاليم الدين الإسلامي مع ذكر الشهادتين، وغير ذلك من عبارات جنائزية كالتذكير بالحساب واللجنة والنار والوعد والوعيد والبعث وقيام الساعة، نرى عوضاً عن هذا كله بيتاً من الشعر هذا نصه:

كل العباد على الحيوة حريص

والموت كأس ليس منه محيص

وليس لي أن أتكلم عن الحياة الأدبية في عصر المتنبي أكثر من ذلك بل أردت مما سبق أن أمهد لكلمتي عن الحياة الفنية الأثرية في هذا العصر.

***

إن دراسة الفنون والصناعات في عصر المتنبي ليست هينة لأنه لم يبق لنا من تحف هذا العصر وآثاره شيء كثير.

والدول التي نريد أن نبحث مخلفاتها وآثارها هي الدول الثلاث التي اختلط بها المتنبي وعاصر أمراءها وهي دولة بني حمدان والدولة الأخشيدية ودولة بني بويه.

دولة بني حمدان:

عاشر المتنبي من أمرائها سيف الدولة (333 -356هـ) وكان ملكه يشمل حلب والعواصم ثم دمشق أخذها من الإخشيديين. وكان أخوه ناصر الدولة على الموصل والجزيرة. ولم يبق لنا الزمن من آثار هذه الدولة إلا قطعاً من عملة عليها اسم سيف الدولة ولكن المؤرخين يقولون أن سيف الدولة بني داراً بظاهر حلب أعظمت فيها النفقة نزلها إمبراطور الروم بعد إحدى الوقائع التي انكسر فيها سيف الدولة سنة 351ه وأخذ منها ثلثمائة وتسعين بدرة دراهم ومن السلاح مالا يحصى ثم نهبها وأحرقها وأحرق بلاد حلب.

الدولة الأخشيدية:

استقل الأخشيديون بمصر في سنة 324ه وفي عهدهم لم تذق البلاد طعماً للراحة، وقد حالت الحروب الداخلية التي وقعت في ذلك العهد دون ترقي الصناعة، ولذلك لا تجد في التاريخ ذكراً لعمارة هامة شيدت في عهد هذه الدولة التي امتد سلطانها إلى الشام والحجاز. وقد نزل الأخشيديون في مبدأ أمرهم في مصر في دار الإمارة التي كان بناها صالح بن علي أول ولاة بني العباس في مدينة العسكر، وذلك لأن القصر

والميدان في القطائع الطولونية كان قد خربهما محمد بن سليمان قائد الخليفة العباسي المكتفي بالله عندما أتى على أمراء الدولة الطولونية.

ورغب محمد بن طغج الأخشيد أن يشيد في جزيرة الروضة بستاناً يسميه المختار، فطلب تخطيط الموقع وتقدير النفقة فخطوا له بستاناً فيه دار للغلمان ودار للنوبة وخزائن للكسوة وخزائن للطعام وصوروه وأتوا به إليه فاستحسنه وقال: كم قدرتم النفقة؟ قالوا: ثلاثين ألف دينار فاستكثرها فلم يزالوا يضعون من التقدير حتى صار خمسة آلاف دينار فأذن في عمله ولما شرعوا فيه ألزمهم المال من عندهم فقسط على جماعة وفرغ من بنائه فاتخذه الأخشيد متنزهاً له وصار يفاخر به أهل العراق ومن العمائر التي ذكرها التاريخ للأخشيديين في مصر إصلاحهم جامع عمرو في سنة 324ه وفي سنة 346ه بني كافور الأخشيدي داراً على بركة قارون (موضعها الآن شارع بالبغالة) أنفق عليها مائة ألف دينار ولكنه انتقل منها بعد أن سكنها بضعة أيام لوباء وقع في غلمانه من بحار البركة.

كل ذلك اندثر ولم يبق له أثر وكل ما بقي من تحف من عهد هذه الدولة في مصر هي قطع من خزف ذي بريق ذهبي عثر عليها في أطلال مدينة الفسطاط زخارفها بين الطولونية والفاطمية رؤى اعتبارها من مصنوعات هذا العهد لأن صناعة الخزف ذي البريق الذهني عرفت في مبدأ الأمر في عهد الدولة الطولونية وترقت إلى أن بلغت غايتها في عهد الدولة الفاطمية. فمرت أثناء تقدمها على الدولة الأخشيدية. وفي قطع الخزف التي عزوناها إلى هذه الدولة زخارف تبين مرحلة الانتقال من العصر الطولوني إلى العصر الفاطمي كما أننا نرى إمضاء الصانع على قاع صحن واسمه "رمضان".

وقد عثر في السنين الأخيرة على عدة قطع من المنسوجات عليها أسماء الخلفاء العباسيين أكثرها من عهد المطيع الذي كانت الدولة الأخشيدية في عهده تحكم مصر، ومكتوب على بعض هذه القطع أنها صنعت في بعض المدن المصرية كما أن الكثير منها حوى زخارف ونصوصاً بالقلم الكوفي المطرز أو المنسوج بالحرير وأحياناً بالذهب. ومن أحسن المنسوجات التي من عهد هذه الدولة قطعة من النسيج عليها سطران بالخط الكوفي أحدهما عكس الآخر يتضمنان اسم المطيع

وألقابه ويحصران بينهما شريطاً به صور حيوانات كتب في وسطها كلمة "الملك بخيوط من ذهب.

والأثر الثابت الوحيد الباقي من عهد الدولة الأخشيدية هو جزء من سور الحرم الشريف بالقدس عمره الأمير علي أبو الحسن الأخشيد في سنة 350ه ونقش عليه بالخط الكوفي قليل التشجير البارز الملفوف اسمه واسم الأستاذ أبو المسك كافور الأخشيدي وأسماء من تولوا العمارة والنقش في هذا التعمير. ويظهر أن السبب في إصلاح هذا الجزء من السور هو أن الأخشيديين مدفونون في القدس بالقرب من هذا الموضع وقد شاهدنا في جبانة المعلة بمكة المشرفة عدة شواهد قبور من حجر البازلت الأسود منقوش عليها كتابات بالقلم الكوفي الجميل من عهد هذه الدولة أيضاً.

دولة بني بويه.

يقول أحد المؤرخين إن معز الدولة بن بويه شرع في سنة 350 ه في بناء دار هائلة في بغداد وأخرب لأجلها دوراً وقصوراً وقلع أبواب الحديد التي كانت على أبواب مدينة المنصور وألزم الناس ببيع أملاكهم ليدخلها في البناء ونزل في الأساسات ستة وثلاثين ذراعاً فلزمة من الغرامات عليها إلى أن مات، ثلاثة

عشر ألف ألف درهم وصادر الدواوين وغيرها. وكان كلما حصل له شيء أخرجه في بنائها وقد درست هذه الدار من قبل سنة ستمائة ولم يبق لها أثر وزار عضد الدولة بن بويه مدينة برسوليس التي بدأ إنشاءها دارا الأكبر فأعجب بها وأحضر من قرأ له ما عليها من نصوص قديمة ثم أمر فنقشوا أسفل الكتابة بالخط العربي ما نصه "حضره الأمير أبو شجاع عضد الدولة أيده الله في صفر سنة أربع وأربعين وثلثمائة. وقرئ له ما في هذه الآثار من الكتابة قرأه على بن السري الكاتب الكرخي وحرر سعيد الموبذ الكازروني"

وعرض في معرض الفن الفارسي الذي انعقد بلندن في أوائل سنة 1931 بعض حشوات من خشب عليها كتابات من عصر دولة بني بويه تضمنت نصوصاً شيعية ومدحاً في أهل بيت رسول الله. وقد حازت دار الآثار العربية بعض هذه الحشوات المزينة برسومات متقنة والمنقوش عليها كتابات كوفية تتضمن أسماء بعض أمراء دولة بني بويه.

ومما لانزاع فيه أن حالة الفنون والصناعات في غير هذه الدولة الثلاث من الإمبراطورية الإسلامية كانت في ازدهار ونمو، وفي هذه الأيام بدأ عبد الرحمن الناصر بناء مدينة الزهراء. ويقول أحد المؤرخين: "بينما كان الشرق في نزاع

واضطراب كان الغرب في هدوء وسكينة فبنى الناصر لدين الله الأموي مدينة الزهراء وكان منتهى الانفاق في بنائها كل يوم مالا يحد. كان يدخل فيها كل يوم من الحجر المنحوت ستة آلاف صخرة سوى الآجر وغيره وحمل إليها الرخام من أقطار الغرب ودخل فيها أربعة آلاف وثلثمائة سارية. وأهدى له ملك الفرنج أربعين سارية من رخام، وأما الوردي الأخضر فمن أفريقية، والحوض المذهب جلب من قسطنطينية والحوض الصغير عليه صورة أسد وصورة غزال وصورة عقاب وصورة ثعبان وغير ذلك، والكل بالذهب المرصع بالجوهر، وبقوا في بنائها ست عشرة سنة. وكان ينفق عليها ثلث دخل الأندلس يومئذ خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف درهم".

وبين هذه المدينة وبين قرطبة أربعة أميال وطولها ألف وستمائة ذراع وعرضها ألف وسبعون ذراعاً، ولم يبن في الإسلام أحسن منها لكنها صغيرة بالنسبة إلى المدائن. وكان بسورها ثلثمائة برج وعمل ثلثها قصوراً للخلافة وثلثها للخدم وثلثها الثالث بساتين. وقيل إنه عمل فيها بحيرة ملأها بالزئبق. وقيل إنه كان يعمل فيها ألف صانع مع كل صانع اثنا عشر أجيراً. وقد احترقت هذه المدينة وهدمت في حدود سنة أربعمائة وبقيت رسومها وسورها.

وقد كشفت أطلالها في أوائل القرن الحالي وعثر بينها على قطع من الأحجار منقوشة نقشاً جميلاً، وأجزاء من أوان خزفية ذات بريق ذهبي عليها رسومات وصور طيور وحيوانات شبيهة بالخزف الطولوني في مصر.

وكانت الصناعات في أقصى البلاد الإسلامية شرقاً مزدهرة خصوصاً صناعة النسيج في فارس وخراسان، وبمتحف اللوفر قطعة من الحرير مرسوم عليها فيلان أحدهما يواجه الآخر، وأسفلهما سطر بالخط الكوفي يتضمن اسم أحد القواد المسمى بختكين وقد ورد ذكر هذا القائد في حوادث سنة 349ه في كتاب تجارب الأمم لابن مسكويه قال عنه أن أمير خراسان عبد الرحمن بن نوح قتل أحد قواده العظام واسمه بختكين في هذا العام.

ولا يبعد أن يكون هو المنقوش اسمه على هذه القطعة من النسيج كما أن هذه القطعة هي بلا مراء من صناعة خراسان التي اشتهرت بصنع المنسوجات في عهد الدولة العباسية ولشهرتها وتأثرها بفنون الصينيين قيل عنها إن زائر عاصمتها مدينة مرو يشعر أنه في بلد من بلاد الصين لكثرة ما كانت تصنعه من منسوجات.

وليس لنا في النهاية إلا أن نقول هاهي ذي بعض التحف الفنية التي وصلت إلينا من عصر المتنبي، وهي على ضآلتها شاهد صدق على أن الحضارة الإسلامية لم تكن زاهرة في الحياة الأدبية فحسب، بل وفي الحياة الفنية أيضاً.

حسن محمد الهواري

جنون العظمة في المتنبي
مرض نفسي فضيلة خلقية

"كان المتنبي ذا كبرياء وترفع، وكانت له دالة على الملوك والأمراء إلى حد لم يكن لغيره حتى نسب إلى الجنون". هكذا يقول المؤرخون. وقد جعل الأستاذان عبد الرحمن صدقي، وطاهر أحمد الطناحي هذه الناحية في المتنبي موضوع مناظرتهما، فرأى الأول أن جنون العظمة عند المتنبي مرض نفسي، وأن مبعث ذلك الصلف والخيلاء. ورأى الثاني أن هذه الصفة فضيلة خلقية وأنها لم تكن صادرة عن صلف وغطرسة، بل عن اعتداد بقيمة الفن، واحتفاظ بالكرامة.

مرض نفسي

بقلم الأستاذ عبد الرحمن صدقي

قال هيني شاعر الألمان بأسلوبه اللاذع الصادق في إحدى رسائله: «الإنسان أزهى الحيوان كافة، والشاعر أزهى بني الإنسان». فإذا أضفنا إلى ذلك اعتقاد العرب بأن أمته خير أمة أخرجت للناس عامة فكل من عداها أعاجم، وإن قبيلته من بين القبائل أكرمها خاصة، حتى بلغ من العصبية أن صارت الأنساب علماً له المقام الأول بين العلوم، وإذا أضفنا من الناحية الأخرى اعتقاده بفضل اللغة العربية على سائر اللغات، وإن أبناءها هم دون سواهم المطبوعون بالفطرة على الشعر، فقد اجتمعت لنا من هذا جميعه صورة صحيحة، أو هي أقرب ما يكون إلى الصحة، عن جنون العظمة عند شاعر العربية الأكبر أبي الطيب المشهور بالمتنبي.

كان أبو الطيب من أصل وضيع خامل، وابوه الحسين يعرف بعبدان السقا. وكان فيما يقال سقاء بالكوفة يستقي على جمله لأهل محلة بها اسمها كندة. والمأثور عن أبي الطيب حرصه على تكتم نسبه، وقد سئل في ذلك فقال يلتمس وجه الحجة: «إني أنزل دائماً على قبائل العرب وأحب ألا يعرفوني خيفة أن يكون لهم في قومي ترة».

ولكنه مع هذا الذي رأينا ن خمول نسبه، ما برح منذ الحداثة شامخاً، مصعراً خده، ينفخ شدقيه بالمفاخرة والتعاظم فلا يقف عند نفسه بل يتجاوزها إلى ذكر جدوده:

لا بقومي شرفت، بل شرفوا بي

وبنفسي فخرت، لا بجدودي

وبهم فخر كل من نطق الضاد

وعوذ الجاني وغوث الطريد

وفي قصيدة أخرى على لسان أحد التنوخيين، ينفي الكرم عن غير اليمانية وهم الأرومة العارية التي إليها تنتمي في القدم سلالات بينها شعبة شاعرنا الجعفي:

ومجدي يدل بني خندف على أن كل كريم يمان

ولولا شعور المتنبي بتواضع نسب أبويه لما قنع بالإشارة إلى عشيرته مرات قلائل، وعلى هذه الصفة من الإيجاز والتعميم، ولما انفك يقرع الأسماع ويجلجل الآفاق بذكر آبائه والإشادة بضخامة حسبهم في كل قصيدة، بمناسبة وغير مناسبة، ذهاباً مع ما درج عليه العرب من الفخر بالأنساب، وما انطبع هو عليه من غلواء الكبر والتعالي على الخلق. وليس أدل على هذه الغضاضة المكتومة من طريقته في تركيزه العظمة في نفسه، ثم استدراكه إلى ذكر قومه أنفة من الاستخذاء وخيفة أن يؤخذ سكوته عنهم تسليماً بخفاء شأنهم وحطة قدرهم. وقد تقدم للقارئ في البيتين السابقين مثال على طريقة الشاعر في التركيز والاستدراك، ونزيد عليهما بيتين من قصيدته الشجية في رثاء جدته:

ولو لم تكوني بنت أكرم والد
لكان أباك الضخم كونك لي أما
وإني لمن قوم كأن نفوسنا
بها أنف أن تسكن اللحم والعظما

وطبيعي أن يكون لهذا التحرز عند ذكر الحسب ردة فعل في ضمير صاحبنا، وانتقاض بقدر ما يعانيه من كان في مثل كبره من الحزازة والكبت. فإنه ليعتاض مما فاته من تفاخر بحسبه ونسبه، بالذهاب إلى الشأو الأبعد في الاعتزاز بنفسه، والمغالاة بقدره، والاستطالة على من سواه. وليست تعوزنا الشهادة على ذلك في ديوانه وفي سيرة حياته، بل إن ذاك وتلك لا يشهدان على شيء إن خفيت دلالتهما على جنون العظمة عنده. فاستمع إليه يصف مقامه في الناس وإرباءه على الأكفاء وتميزه عن النظر بما يجعله صنو الأنبياء:

ما مقامي بأرض نخلة إلا كمقام "المسيح" بين اليهود
أنا في أمة تداركها الله غريب "كصالح" في ثمود

وفي قوله هاجياً:

يا لك الويل، ليس يعجز "موسى" رجل حشو جلده فرعون

وهو يعلم من نفسه خيلاءها وعجبها فلا يصطنع المداجاة، ولا يحتال باعتذار، ويأبى له صدق إيمانه بنفسه وعمق يقينه إلا أن يصدع بقول لا جمجمة فيه بأن الكبرياء حقه لا منازع له فيه:

إن أكـــــن معجبـــــاً فعجـــــب عجيـــــب

لم يجـــــد فـــــوق نفســـــه مـــــن مزيـــــد

وهـذا الإحسـاس المفخـم تـتردد أصـداؤه في كـل قصـيدة حتى ولو كان في موقف العبرة أمام الموت كقوله عن نفسه في مرثيته لجدته:

تغـــــرب لا مســـــتعظماً غـــــير نفســـــه

ولا قـــــــابلاً إلا لخالقـــــــه حكمـــــــا

بل إنه ليقع في دخيلة روعنا مه أنه في تسليمه هنا للقضاء لينطوي على مضاضة الرغم، وإن هذا الشطر الأخير منتزع منه انتزاعاً. فإننا نعرف الرجل متمرداً على كل سلطان، مستخفاً بكل شيء، وإن لنا من تصرفه كدعوى النبوة في صباه، وتركه للصلاة والصيام طيلة حياته، ثم من مبالغاته الكفرية في بعض تشبيهاته لممدوحيه، ما يشعرنا منه ضعف العقيدة ورقة الدين. وهل يستشعر خشعة التقوى من يقول ذات يوم ولو في مقام الفخر:

أي محـــــل أرتقـــــي أي عظـــــيم أتقـــــي؟

وكـــــل مـــــا خلـــــق الله ومـــــا لم يخلـــــق

محتقـــــر في همـــــتي كشـــــعرة في مفرقـــــي

والذي يروي عن تعاظم المتنبي كثير. ونحن لا نستكثره عليه، وإنما نستكثره منه لخروجه عن المألوف في زمنه. فقد اشترط على سيف الدولة الحمداني ملك حلب أول اتصاله به، إنه إذا أنشده مديحه لا ينشده إلا وهو قاعد، وأنه لا يكلف تقبيل الأرض بين يديه. ويعقب الرواة على ذلك بقولهم "فنسب إلى الجنون". وقد دخل سيف لدولة تحت هذه الشروط وارتضاها، وتوثقت بين الأمير وشاعره أسباب الولاء والمحبة أعواماً. إلا أن ما بالمتنبي لم يك صيان حرمة وحفاظاً على كرامة، بل هو الصلف ثقيل الوطأة والكبرياء إلى غير حد. فغاظ ذلك سيف الدولة منه، فكان أحياناً يجفو عليه إذا كلمه، ثم زادت الوحشة فوقعت النبوة وانصدع الشمل. ولم يكن هذا الذي حصل ليطامن بأوه ويكفكف من نعرته، فإنه لما سار عنه إلى كافور الأخشيدي حاكم مصر كان يقف بين يديه وفي رجليه خفان وفي وسطه سيف ومنطقة، وكان يركب بحاجبين من مماليكه وهما بالسيوف والمناطق. وإذ كان على هذا المثال مسلكه من الملوك والأمراء

وهم ممدوحوه يقصدهم للنوال، فقد غنينا عن إطالة الكلام في تعاظمه على سائر الناس، وتعرضه لعداواتهم وأعراضه عن شانئيه من رجال الدولة والمتأدبين، وتعمده تجاهلهم. ولقد روى أبو علي الحاتمي وروده بغداد، وكيف كان ملتحفاً رداء الكبر والعظمة، لا يرى أحداً إلا ويرى لنفسه مزية عليه، ويخيل له أنه نسيج وحده، وإن العلم مقصور عليه والشعر لا يعذب من غيره، حتى ثقلت وطأته على أهل الأدب بمدينة السلام.

ويستطرد أبو علي فيقول: "فتوخيت أن يجمعنا مجلس أجرى أنا وإياه في مضماره ليعرف السابق من المسبوق، فلما لم يتفق ذلك قصدت مجلسه، فوافق مسيري إليه حضور جماعة يقرأون عليه شيئاً من شعره، فحين استؤذن لي نهض من مجلسه ودخل بيتاً إلى جانبه. ونزلت عن بغلتي وهو يراني ودخلت إلى مكانه، فلما خرج إلي نهضت إليه فوفيته حق السلام غير مشاح له في ذلك. وكان سبب قيامه من مجلسه لئلا يقوم لي عند موافاتي. ولبس سبعة أقبية ملونة، وكان الوقت أحر ما يكون من الصيف وأحق بتخفيف اللبس. فجلس وأعرض عني ساعة لا يعيرني طرفاً ولا يكلمني حرفاً. وكدت أتميز غيظاً، وأقبلت أسخف رأي في قصده، وأعاتب نفسي في

التوجه إلى مثله. وهو مقبل على تكبره، ملتفت إلى الجماعة الذين بين يديه وكل منهم يومئ إليه، ويوحي بطرفه، ويشير إلى مكاني، ويوقظه من سنة جهله، فما يزداد إلا ازوراراً ونفاراً جرياً على شاكلة خلقه. ثم توجه إلي فما زادني على قوله: "أي شيء خبرك؟".

والمتنبي شاعر مقل لا يبذل المديح لكل من لقيه. ولقد جر عليه ترفعه عن مدح الوزير المهلبي والصاحب بن عباد عداوات مشبوبة اللظى ملحة النكير، فكان الأخير بأصفهان لا حديث له إلا تتبع سقطاته والنعي على سيئاته، وهو أعرف الناس بحسناته وأكثرهم تمثلاً به في محاضراته ومكاتباته، وأغرى الأول به شعراء العراق حتى نالوا من عرضه، وتبارزوا في هجائه، وتنادروا به وتماجنوا عليه. والمتنبي معرض عنهم سادر في كبريائه. وكان الشاعر شديد الأدلال على ممدوحيه. فكان يعطيه سيف الدولة كل سنة ثلاثة آلاف دينار على ثلاث قصائد، ومع ذلك فقد يتأخر بالمديح عنه حتى يشق على سيف الدولة فيتنكر له ويحضر من لا خير فيهم يتعرضون له في مجلسه بما لا يحب. وكان شاعرنا نادرة في الحفظ مكباً على التحصيل منذ نعومة أظفاره، وقد صحب الأعراب في البادية وجاء بعد سنين بدوياً قحاً، وكان يكثر من ملازمة

حلقات الأدب ومكاتب الوراقين. ويروي عنه رجل من أهل الشام كان يتوكل له في داره "... ثم جن الليل فقدمت له شمعة وأمر برفع دفاتر وكانت تلك عادته كل ليلة، فجعل عينه إلى الدفتر يدرس ولا يلتفت إلينا حتى مضى من الليل أكثره..." فترى أنه إلى جودة الملكة كان واسع الاطلاع، محيطاً بأخبار العرب وأشعار المتقدمين، بصيراً بفنون الكلام، ومع ذلك فشعره يكثر فيه التصعب والإغراب والتعاظل، ولا غرو فتلك شنشنة معروفة عند الذين بهم مس العظمة ترفعاً عن السهولة وقرب المتناول، وازدهاء بما يتكلف الناس في دركهم من النصب:

أنام ملء جفوني عن شواردها
ويسهر الخلق جراها ويختصم

وشاعرنا ككل شاعر مزهو بشعره فخور:

وما الدهر إلا من رواة قصائدي
إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً
فسار به من لا يسير مشمراً
وغنى به من لا يغني مغرباً

ولكن الشعر لم يكن قط عنده غرضاً لذاته. وإنما كان هم الرجل في العظمة، فهو يطلبها عن طريق الشعر كما يطلبها عن غيره. ولقد تنازعه الشك في جدوى القريض وهو في أول الطريق، فتردد في المضي فيها لامترائه في أنها مؤدية إلى ما يبتغيه "ما يبتغي جل أن يسمى" وقام بنفسه أن يعدل عن حياة الدرس ومزاولة الشعر إلى خوض المكاره والمغامرة في الحروب:

أفكر في معاقرة المنايا
وقود الخيل مشرفة الهوادي
زعيم للقنا الخطى عزمي
بسفك دم الحواضر والبوادي
إلى كم ذا التخلف والتواني
وكم هذا التمادي في التمادي
وشغل النفس عن طلب المعالي
ببيع الشعر في سوق الكساد

ومع أن الرجل سبق أن ذاق الحبس حتى كاد يتلف واستهدف للردى في مغامراته، إلا أنه لم يزل يحك في صدره قبل الاعتقال وبعده نزوة الخروج على السلطان وطلب الرياسة. ولقد حاولها في صدر أيامه غلاباً بالسيف والفتكة البكر، وبالهبوات السود، والعسكر المجر، وتضريب أعناق الملوك على حد قوله. وله في توعدهم ومقاضاته عروشهم شعر كثير:

أيملك الملك والأسياف ظامئة
والطير جائعة لحم على وضم
من لو رآني ماء مات من ظمأ
ولو مثلت له في النوم لم ينم
ميعاد كل رقيق الشفرتين غداً
ومن عصى من ملوك العرب والعجم

فلما أعجزته الولاية غلاباً، التمسها في إدبار عمره سؤالا. فلم يصبر عند قدومه على كافور أن أشار إلى ذلك في أول قصيدة قالها فيه:

وغير كثير أن يزورك راجل فيرجع ملكا للعراقين واليا

ثم ضاق بالانتظار فصارحه أن يوليه صيداء من بلاد الشام أو غيرها من صعيد مصر. وكأنما كان يخشى أن يحول انتسابه إلى الشعراء دون الولاية فاستدرك في قصيدة أخرى:

وفؤادي من الملوك وإن كا ن لساني يرى من الشعراء

فالرجل يقول الشعر وأي شعر! ولكنه لا يحيا له، أو لا يحيا له وحده. فهو شديد الامتلاء بنفسه، مكظوظ بها إن جاز هذا التعبير، وكأن ليس للعالم وجود خارجاً عنه فلا شيء في العالمين إلا وهو أحق به من كل إنسان، سواء أكان هذا الشيء شعراً أو فروسية، أو يتصل بساحة الملك أو حرم النبوة. والناس أجمعون ملوكهم كعبيدهم طغام في طغام:

ودهر ناسه ناس صغار وإن كانت له جثث ضخام
أرانب غير أنهم ملوك مفتحة عيونهم، نيام
وشبه الشيء منجذب إليه وأشبهنا بدنيانا الطغام

ويعود في أبيات أخرى لأهل زمانه يتناولهم بالتصغير والتحقير:

أذم إلى هذا الزمان أهيله
فأعلمهم فدم، وأحزمهم وغد

وأكـــرمهم كلـــب، وأبصـــرهم عـــم

وأســـهدهم فهـــد، وأشـــجعهم قـــرد

ومع استخفافه هذا بالدنيا واحتقاره الناس، فإنه ما برح يطلب فيها الرياسة بينهم متجشماً الأسفار متحيراً بين الأقطار، حتى طاح رأسه وفكرة الملك تدور فيه. وهذا الجنون بالعظمة تلازم أصحاب المبالغة في تصور الاضطهاد الواقع بهم ويركبهم وسواسه. فترى المتنبي لا يفتأ يذكر الحاسدين والشامتين والقائمين والقاعدين بالنقمة عليه والساهرين للكيد له والوقيعة به، فهو أبداً في حرب طاحنة مع قوى لا قبل لأحد بها ظاهرة وخافية حتى ليقول:

"أطاعن خيلا من فوارسها الدهر"

ونحب قبل الختام أن نشير إلى أن هذا المرض النفسي عند المتنبي كان أظهر من أن يفوت نظر النقاد من العرب، فقد قال الشريف الرضي في صدد المفاضلة التي أولعوا بعقدها بين شاعرنا وأبي تمام والبحتري: "أما أبو تمام فخطيب منبر، وأما البحتري فواصف جؤذر، وأما أبو الطيب المتنبي فقائد عسكر". وجاء في مرثية أبي القاسم الطبثي له:

كـــان مـــن نفســـه الكـــبيرة في جـــي

ش، وفي كبريـــــــــاء ذي ســـــــــلطان

فضيلة خلقية

بقلم الأستاذ طاهر أحمد الطناحي

كثير ممن تعرضوا للكتابة عن المتنبي رموه بالكبرياء والغرور، واتهموه بالغطرسة والتنفج وجفاء الطبع، حتى قال أبو علي الحاتمي: "كان أبو الطيب عند وروده مدينة السلام قد التحف برداء الكبر والعظمة، يخيل له أن العلم مقصور عليه، وأن الشعر لا يغترف عذبه غيره، ولا يقطف نوره سواه. ولا يرى أحداً إلا ويرى لنفسه مزية عليه". وزعموا أنه لكبريائه وخيلائه ادعى النبوة وهو فتى في مقتبل الفتوة، وطمع في الإمارة والملك. وترفع عن مدح غير الملوك والأمراء.. وهم حينما يروون هذه الأقاصيص التي تتعلق بكبريائه، والتي أكثرها موضوع افتعله حساده ليشوهوا سمعته، ويخفضوا مكانته، إنما هم يصورونه في حالة خلقية هي نقيصة النقائص في الطبع، وعيب العيوب في الخلق. ولم يجد حساده في زمنه

سلاحاً يحاربونه به أقوى من هذا السلاح الذي يغرى به الملوك وذوي المطامع والسلطان. وقد اتخذوا من هذه الصفة صفة الكبرياء التي قلبوا حقيقتها فيه، وأنكروا فضيلتها عنده، وسيلة استخدموها للدس عليه، والغض من شأنه، حتى إن أبا فراس الحمداني وهو على ما عرف فيه من أدب ورفعة محتد لم يستطع أن يحاربه عند سيف الدولة بعد اليأس إلا من هذه الطريق التي تظهر المتنبي مدلاً متغطرساً ممجوجاً ذا منقصة شنيعة، وهي ليست عند العارفين بطبائع العظماء بمنقصة أو عيب يحسب في عداد النقائص والعيوب.

فقد حكوا أن أبا فراس قال لسيف الدولة: "إن هذا المتسمى كثير الدلال عليك. وأنت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار على ثلاث قصائد، ويمكن أن تفرق مائتي دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره".. وليس أبو فراس واحداً في مهاجمة أبي الطيب من هذه الناحية، بل كل حساده هاجموه منها، ووصموه بوصمة الكبر والجنون بالعظمة إلى جانب رميهم إياه بالسرقة، واتهامه بالأخذ من الشعراء، وهم يعلمون أن هذه التهمة تجرح كبرياءه وتمحق خيلاءه، وتقوض عظمته التي يغيظهم منها قوله:

ومـــا الـــدهر إلا مـــن رواة قصـــائدي

إذا قلـــت شـــعراً أصـــبح الـــدهر منشـــداً

فســـار بـــه مـــن لا يســـير مشـــمراً

وغنـــى بـــه مـــن لا يغنـــى مغـــرداً

أجزنـــي إذا أنشـــدت شـــعراً فإنمـــا

بشـــعري أتـــاك المـــادحون مـــرداً

وأنـت حـين تتصـفح حيـاة المتـنبي، وتـدرس أخلاقـه، وتستقري هذه الكبرياء في شعره، وفيما روى عنه فيما كان بينه وبين سيف الدولة، وبينه وبين كافور أو عضد الدولة وغيره ممن اتصل بهم، لا تجد أثراً للكبرياء المقوتة اتي تحط من قدر صاحبها، وتلحقه بالمغرورين المتنفجين الذين يتعالون في غير علو، ويفخرون بغير ما سبب للفخر، وإنما تجد عظمة أدبية، واعتداداً بالنفس وصوناً لكرامة الأدب والأديب عن الصعلكة والمهانة في مجالس الملوك والأمراء.

فقد عرف المتنبي قيمة رسالته الفنية، وعرف ما للفن من مقام في حياة الجماعة، فربأ به عن أن يكون ذليلاً مهيناً، وأراد أن يفرض على الناس احترامه وتعظيمه، حتى إذا وجد

نفسه وهو فتى بين قوم لا يفهمون فنه كما يريد هو أن يفهموه قال قصيدته المشهورة التي جاء فيها:

إن أكـــن معجبـــاً فعجـــب عجيـــب

لم يجـــد فـــوق نفســـه مـــن مزيـــد

أنـــا تـــرب النـــدى ورب القـــوافي

وسمـــام العـــدا وغـــيظ الحســـود

أنـــا في أمـــة تـــداركها الـــل

ه غريـــب كصـــالح في ثمـــود

ولا يشكو هذه الشكوى إلا الفنان الذي يفهم قيمة فنه، ويرى الوسط المحيط به لم يفهم هذا الفن أو هذه النبوة في الفن التي تفرد بها في قومه كتفرد صالح بنبوته في ثمود. فهو إنما يعتبر رسالة الفن كرسالة النبوة تخدم كل منهما الحياة البشرية من ناحيتها الخاصة بها. ومن أجل ذلك يجب تعظيمها وتعظيم صاحبها، وأن يعطى حقه من الإجلال والإكبار.

وليس أبو الطيب بالشاعر الذي خدمت عظمته الظروف، وساعده ضعف شعراء عصره في الظهور، فقد عاش في عصر يعد أقوى عصور اللغة العربية الماضية، وأسماها في نواحي

الأدب والثقافة والتفكير. وكانت المائة الثالثة للدولة العباسية هي المائة الذهبية للعلوم والآداب في حياة هذه الدولة. وقد نضجت فيها اللغة وعلوم التاريخ والأدب والطب والفلسفة والجغرافية وغيرها من العلوم والفنون، وكان الملوك والأمراء والوزراء من كبار العلماء والأدباء. وكان سيف الدولة شاعراً وعضد الدولة شاعراً كما كان الفضل بن العميد، والصاحب بن عباد من فحول الأدباء. وكان من شعراء ذلك العصر أبو فراس الحمداني، والسرى الرفاء، وابن نباتة السعدي، والسلامي وابن هانئ الأندلسي وغيرهم. فإذا ظهر أبو الطيب على هؤلاء جميعاً، بل على جميع شعراء عصره وشغلهم بمنافسته وحسده، فإن ذلك ليس من السهولة بحيث يبيح للكاتب أن يتهم المتنبي بالكبرياء والغرور، ويجعل فضيلة الاعتداد بالفن ومعرفة قيمته والمحافظة على كرامته عيوباً مزرية به.

ولو لم يكن في خلق المتنبي إلا هذه الكرامة التي احتفظ بها لأدبه، لكفاه فضلاً أن يكون هو أول الشعراء بعد العصر الجاهلي الذين حافظوا على كرامتهم وفرضوا على الملوك والأمراء أن يطأطئوا لهم الرؤوس احتراماً ويجلسوهم من مجلسهم خير مجلس.

ومن من الشعراء شرط على ملك من الملوك ألا يمدحه إلا وهو جالس، وأنه إذا دخل عليه لا يكلف بتقبيل الأرض كما يفعل سائر رجال الدولة؟

من من الشعراء غير المتنبي شرط ذلك على سيف الدولة، فقبله ودخل تحت حكمه رغبة في شرف هذا المدح الذي توجه به وخلد به ذكره على الدهر؟

ثم من من الشعراء غير المتنبي شرط على كافور حين قدم مصر ألا يمدحه إلا وهو متقلد منطقته وسيف، ولا يسير في الطريق إلا بمملوكين شاهرين سيفيهما عن يمينه وشماله، فرضى هذا الأسود المتسلط بهذه الشروط، وخضع لها أربع سنوات حتى حسد صاحبها، وخشى أن يظهر عليه في مصر وينتزع ملكها منه.

لقد كانت هذه الكبرياء أو الاعتداء بالكرامة مما يشرف الأديب، ويعلي من مكانة الأدب في أعين الجماهير. وقد كان المتنبي لذلك يأنف أن يمدح ما دون الملوك والأمراء، وكانت هذه الصفة سبباً في حقد الوزير المهلبي عليه، وحسد الصاحب بن عباد وخصومته وخصومة غيره من الطامعين في شرف مدحه.

وما مدح أبو الطيب المتنبي الفضل بن العميد إلا لصداقته إياه وعلمه بأدبه وفضله. ومثله في ذلك غيره وهم قليلون ممن مدحهم من الأدباء وذوي الجاه الذين كانوا يشتهون ثناءه.

وقد روى أن الشريف أبا القاسم طاهراً العلوي رجا أن يمدحه المتنبي، وبعث إليه في ذلك، فأبى، فأحال عليه الأمير أبا محمد بن طغج. وكان قد وفد عليه المتنبي فألح عليه الأمير وهو لا يزداد إلا إباء، ويقول: "ما قصدت غير الأمير، ولا أمدح سواه" فقال له أبو محمد: "إذن فانظم قصيدة في مدحي ثم اجعلها له" فقبل بعد صعوبة... قال محمد بن القاسم الصوفي:

فسرت أنا والمطلي برسالة طاهر إلى أبي الطيب، فركب معنا حتى دخلنا وعنده جماعة من الإشراف. فلما أقبل أبو الطيب نزل طاهر عن سريره، والتقاه مسلماً عليه، ثم أخذه بيده، فأجلسه في المرتبة التي كان فيها، وجلس هو بين يديه، وتحدث معه طويلاً ثم أنشده أبو الطيب فخلع عليه للوقت خلعاً نفيسة، قال أبو القاسم الكاتب:

"كنت حاضراً هذا المجلس. فما رأيت، ولا سمعت أن شاعراً جلس الممدوح بين يديه مستمعاً لمدحه غير أبي الطيب!!"

وفي هذا المديح يقول لطاهر العلوي:

حملـــت إليـــه مـــن لســـاني حديقـــة

ســقاها الحجــا ســقى الريــاض الســحائب

فانظر كيف تكون كرامة الأديب واعتذاره في قبول الخلع والعطايا. فهو قد حمل إليه هدية، وقدم إليه حديقة من الفن تسمو على هذه الخلع والعطايا.

وقد كانت الخلع والعطايا عادة سارية، وهدية مألوفة للشعراء الذين يمدحون الملوك وذوي الجاه في ذلك الزمان. ومع ذلك فإن المتنبي كان يعتبر ما يأخذه من خلع وعطاء ليس سوى مقابل ضئيل لما يعطيه هو من فنه، ويرى أن ما يخلعه على الملوك والأمراء من أثواب الخلود أفضل وأجل مما يخلعونه هم عليه، ويهدونه إليه من بدر المال وربات الجمال.

ولذلك كان يقول لسيف الدولة:

أبــا الجــود أعــط النــاس مــا أنــت مالــك

ولا تعطـــين النـــاس مـــا أنـــا قائـــل

ويقول له:

ولي فيك ما لم يقل قائل وما لم يسر قمر حيث سارا

ويقول لعضد الدولة:

ليـــت ثنـــائي الـــذي أصـــوغ فـــدى

مـــن صـــيغ فيـــه فإنـــه خالـــد[1]

لـــو يتـــه دملجـــاً علـــى عضـــد

لدولـــــة ركنهـــا لـــه والـــد

ثم هو إذا عاتب ملكاً أو أميراً، فقد كان يعاتبه معاتبة النظير للنظير، فقد وشى به أبو فراس وبعض منافسيه عند سيف الدولة، وتأثر سيف الدولة بهذه الوشاية فنظم المتنبي قصيدته التي بدأها هذا الابتداء الجريء:

ألا مالســـيف الدولـــة اليـــوم عاتبـــاً

فـــداه الـــورى أمضـــى الســـيوف مضـــارباً

---

[1] يقول أتمنى أن يفدي شعري عضد الدولة لأن شعري خالد. والدملج ما يلبس من الحلي في العضد. فمعنى البيت الثاني جعلت مدحي حلية للممدوح كما يحلي العضد بالحلية. وهو عضد لدولة ركنها أبوه.

ومـــالى إذا مـــا اشـــتقت أبصـــرت دونـــه

تنـــــــائف لا أشـــــــتاقها وسباســـــــبا

ثم نظم قصيدته التي يقول فيها:

واحـــــر قلبـــــاه ممـــــن قلبـــــه شـــــيم

ومـــن بجســـمي وحـــالي عنـــده ســـقم

إن كـــــان يجمعنـــــا حـــــب لغرتـــــه

فليـــت أنـــا بقـــدر الحـــب نقتســـم

يـــا أعـــدل النـــاس إلا في معـــاملتي

فيـــك الخصـــام وأنـــت الخصـــم والحكـــم

إن كـــان ســـركم مـــا قـــال حاســـدنا

فمـــــا لجـــــرح إذا أرضـــــاكم ألم

وبيننـــــا لـــــو رعيـــــتم ذاك معرفـــــة

إن المعـــــارف في أهـــــل النهـــــى ذمـــــم

وأنت تقرأ هذه الأبيات فتشعر أن ناظمها كان يعتبر نفسه في منزلة هذا الملك الخطير الذي كان ينشر سلطانه على حلب وما بين النهرين. بل كان يعتبر نفسه أكبر منه

منزلة لأنه أديب ذو رسالة فنية يفنى سيف الدولة، وتفنى أعماله، وتبقى هي بروعتها وجلالها خالدة مدى الزمان.

وقد كان لا يغرق في المدح لأنه كان يعتبر ممدوحه مثله أو أقل منه. فلا يكثر في مدحه، بل كان يجود بالبيتين أو الأبيات ثم يفيض بالحكم، ويستطرد إلى وصف المشاهد والمعارك وضرب الأمثال وشكوى الزمان والذراية بالأعداء هذا بعد أن يكون قد جعل الجزء الأول في كثير من مدائحه غزلاً وتشبيباً بالنساء على عادة شعراء الجاهلية. وفي ذلك الغزل تراه أيضاً محتفظاً بكرامته صائناً لعزته، لا يذل في الشوق والهيام، ولا يتقرب إلى المرأة إلا من قبيل المجاملة، فلا ينزل به الغزل إلى الهوان الذي ينزل إليه ضعفاء الإرادة من المتغزلين. فمنتهى ما يتقرب به إلى المرأة أن يقول:

زودينا من حسن وجهك ما دا
م فحسن الوجوه حال تحول
وصلينا نصلك في هذه الدني
ا فإن المقام فيها قليل
إن تريني أدمت بعد بياض
فحميد من القناة الذبول

أو يقول:

إن الـــتي ســـفكت دمـــي بجفونهـــا
لم تـــدر أن دمـــي الـــذي تتقلـــد
قالـــت وقـــد رأت اصـــفراري مـــن بـــه
وتنهـــــدت، فأجبتهـــــا المتنهـــــد

وفي هذه الأبيات يضع نفسه من محبوبته في مكان من يستحق أن يقاسم الحب. وأن يكون نصيبه منه عندها كنصيبها منه عنده وهذا على ما نظن يتفق والدعوة للمساواة! على أنه لا يواصل محبوبته إلا إذا واصلته. فإذا كانت تجود بالوصال فإنه يجود به. وهو إذا رضى بسفك دمه، فإنما لأن محبوبته لا تعلم أن دمه هو الذي تسفك. ولو أنها علمت لما سفكت. حتى إذا رأته في اصفراره أشفقت وتنهدت كتنهده، وقابلته بمثل ما قابلها به. وفي ذلك ما فيه من الاعتداد بالنفس والحرص على الكرامة حتى في الحب، أما الذي فلا يقبله بحال من الأحوال:

عـــش عزيـــزاً أو مـــت وأنـــت كـــريم
بـــين طعـــن القنـــا وخفـــق البنـــود

واطلـــــب العـــــز في لظـــــى وذر الـــــذ

ل ولـــــو كـــــان في جنـــــان الخلـــــود

كذلك كانت كبرياء المتنبي. وكذلك كان ترفعه. وهو ترفع يشرف الأدباء حقاً. وهو فضيلة خلقية من أسمى فضائل الأدب.

وقد رووا عنه منقصة البخل، ورموه بأنه كان غاية في الحرص والشح. وما أحسب إلا أن هذه الوصمة قد دسها عليه حساده دساً، وافتعلوها افتعالاً، فإن شجاعة أبي الطيب، وعلو نفسه واستهانته بالحياة تأبى عليه ذلك ولو كان بخيلاً حريصاً على المال لما فارق سيف الدولة وزهد في خلعه وعطاياه وكانت تعد بالآلاف. والحريص البخيل يضحّي بكرامته وبأعز شيء لديه في سبيل الحصول على المال. وما كان كذلك أبو الطيب.

قال ابن زيد التكريسي: "بلغني أنه قيل للمتنبي قد شاع عنك من البخل في الآفاق، ما قد صار سخرا بين الرفاق، وأنت تمدح في شعرك الكرم، وتتعاطى كبر النفس وعلو الهمة وطلب الملك، والبخل ينافي ذلك، فقال: إن للبخل سبباً. وذلك أني أخذت يوماً خمسة دراهم. ومشيت في أسواق بغداد فمررت

بصاحب بطيخ، فتقدمت إليه وقلت له: بكم تبيع هذه البطيخات الخمس. فقال بغير اكتراث: اذهب فليس هذا من أكلك، فتماسكت معه، وقلت: أيها الرجل دع ما يغيظ، وأقصد الثمن. فقال: ثمنها عشرة دراهم. فدفعت له الخمسة فلم يقبل، وإذا بشيخ من التجار قد خرج من الخان ذاهباً إلى داره، فوثب إليه صاحب البطيخ من دكانه ودعا له، فقال الشيخ: ويحك بكم هذه قال بخمسة دراهم، فقال بل بدرهمين، فباعه وحملها إلى داره وعاد مسروراً إلى دكانه. فقلت: يا هذا ما رأيت أعجب من جهلك. أعطيتك فيها خمسة دراهم فلم تقبل وبعتها بدرهمين محمولات؟! فقال: اسكت هذا يملك مائة ألف دينار. فقلت إن الناس لا يكرمون أحداً أكرامهم من يعتقدون إنه يملك مائة ألف دينار. وأنا لا أزال على ما تراه حتى أسمع الناس يقولون أن أبا الطيب قد ملك مائة ألف دينار" وهذه الحكاية ظاهرة الاختراع، على أنها لو صحت لكانت مؤيدة لما نقوله من أن الرجل حين جرحت كرامته بهذا الذي فعله بائع البطيخ، رأى أن الحرص على المال باب من أبواب الاحترام فحرص عليه. وهو إذا حرص هذا الحرص، فلأنه لم يكن له ريع يعيش منه سوى ما تفرضه العادة على الملوك والأمراء لا مثاله في هذا الزمان.

أما بعد، فهذه كبرياء المتنبي، وهذا جنونه بالعظمة وهما فضيلتان في جميع ظروفهما المحيطة بهما، وفي حالة صاحبهما الذي كان يرى للأدب مكانة ممتازة ليست دون مكانة الإمارة والملك. وإذا كان الأمراء والملوك قد ذهبوا بعظم السلطان، وكثرة الأعوان، فقد ذهب الأدب بما لم يذهب به الملك في جميع الأجيال بفخر سلطانه على النفوس، وامتلاكه للقلوب من جميع الألوان، وكان له في كل نفس عون، وفي كل قلب نصير، لأنه روح الحياة المعنوية التي تحفز الناس على النهوض، وتحمي فيهم الآمال، وتدفعهم إلى طلب المجد.

من حكم أبي الطيب

خليك أنت لا من قلت خلي وإن كثر التجمل والكلام
وما كل بمعذور ببخل وما كل على بخل يلام
تلذ له المروءة وهي تؤذي ومن يعشق يلذ له الغرام

***

الحب ما منع الكلام الألسنا وألذ شكوى عاشق ما أعلنا
ومكايد السفهاء واقعة بهم وعداوة الشعراء بئس المقتنى

***

إنما أنفس الأنيس سباع يتفارسن جهرة واغتيالا
من أطاق التماس شيء غلابا واغتصاباً لم يلتمسه سؤالا
كل غاد لحاجة يتمنى أن يكون الغضنفر الرئبالا

***

إذا غـامرت في شـرف مـروم فـلا تقنـع بمـا دون النجـوم
فطعـم المـوت في أمـر حقـير كطعـم المـوت في أمـر عظـيم
يـرى الجبنـاء أن العجـز عقـل وتلـك خديعـة الطبـع اللئـيم
وكـل شـجاعة في المـرء تفنـى ولا مثل الشجاعة في الحكـيم

***

لا تلق دهرك إلا غير مكـترث ما دام يصحب فيه روحك البدن
فما يدوم سرور مـا سـررت بـه ولا يـرد عليـك الفائـت الحـزن
ما كل مـا يتمنى المرء يدركـه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

***

ذريني أنل مالا ينال من العلا فصعب العلى في الصعب والسهل في السهل

تريدين إدراك المعالي رخيصة ولابد دون الشهد من إبر النحل

المتنبي
بين محاسنه ومباذله

بقلم الأمير شكيب أرسلان

المتنبي أحمد بن الحسين الكندي الجعفي من كبار فحول الكلام الذين لم تنجب الإنسانية أمثالهم في آلاف من السنين. ولو أن المتنبي ترجم ديوانه إلى اللغات الأوروبية بأقلام فصحاء يتقنون اللغتين المترجم منها والمترجم إليها، لعرف الأوروبيون من فصاحة العرب وتحليقهم في سماء الأدب ما هو فوق تصورهم الحالي. هذا برغم ما يكون بين الترجمة والأصل من الفرق العظيم الذي لا تفيد براعة الترجمة شيئاً في تلافيه. فالمتنبي لسان إبداع الأولين ولسان إبداع في الآخرين، وهو شاعر سرمدي لا يختص بعصر ولا بمصر، فأين كانت الإنسانية وأنى كانت، فالمتنبي مثلها الأعلى في الفصاحة والبلاغة. وكل عبقري في العالم قد يعطيه الناس زيادة على

حقه، إما لإفراط في الإعجاب، وإما لأجل التأثير في السامع، فإن الكتاب قد يحسبون حساب المسافة الفاصلة بين الحقيقة في حد ذاتها وبين أفهام السامعين أو القراء، فيتعمدون زيادة القوة الموصلة للحقائق حتى تصل سالمة ولا ينقص منها شيء في الطريق، وأما المتنبي فمهما قيل فيه فإنه قمن، وذلك لأنه ليس هناك شاعر مثله اتسع في فتوحات الكلام، وتساوى في فهم شعره الخاص والعام.

ومما لا مشاقة فيه هو أن أبا تمام الطائي أجزل شعراً وأمتن لغة وأعلى نفساً، وأن أبا عبادة البحتري أطلى نظماً وأرق نسجاً وأعذب لغة، فليس عند المتنبي قوة أبي تمام في الجزالة ولا ملكة البحتري في السلامة، ولكنه يعلو على الاثنين علواً كبيراً في الأمثال والحكم وجوامع الكلم، فإنه لا يوجد معنى تبحث النفس عنه لتجد له قالباً لائقاً إلا وجد الإنسان عليه بيتاً من شعر المتنبي. ففي هذا لا يباريه مبار ولا يصطلى له بنار ولا تأتي بمثله الإعصار، لا في شعراء العرب ولا في غيرهم. وقد نشر الحاتمي رسالة قابل فيها بين معاني المتنبي المنظومة شعراً وبين أقوال أرسطاليس، فوجد طائفة متشابهة قال إنها إن كانت من قبيل توارد الخواطر، فذلك مقام كبير لأبي الطيب وهو أن يتفطن لما فطن له شيخ الفلاسفة، وإن

كان المتنبي اطلع على أقوال أرسطو ونظمها شعراً فهو أيضاً فضل عظيم.

ومن قرأ شعر المتنبي من أوله إلى آخره اقتنع بأنه لم يكن يرجع في اختراعاته غير المسبوقة وابتكاراته الناشئة عن محض السليقة إلى أرسطو ولا إلى غيره، وإنما كانت أبياته المشابهة لأقوال أبي الفلاسفة من قبيل توارد الخواطر وتوافق الضمائر. وكم يقع هذا بين العلماء الكبار ولا سيما بين العبقريين الذين يتراءى للواحد منهم ما يتراءى للآخر، كأن العبقرية شركة عنان وكأن النبوغ حصة شائعة كما يملكه الواحد يملكه الاثنان. وبالاختصار فلا يكاد يمر بالإنسان يوم إلا ويخطر بباله معنى من مناحي الحياة المتعددة يفكر في إيراده في بيت منظوم، إذا وجد من ذلك واحداً عند الشعراء كلهم وجد بإزائه خمسة عند المتنبي وحده. فهو ملجأ المتمثلين ومفزع المتأثرين. وكأن المستشهد بشعر المتنبي إذا شكا أو بكى أو حن أو طرب أو هاج أو غضب أو تحرك أو ركب أو أحب أو شرب، وجد في شعر المتنبي الغاية التي يشتفي بها أواره، ويقر عنده قراره. فإذا قيل: إن المتنبي رفيق كل مفكر وكهف كل متعمق وشيخ كل واعظ وحلية كل لافظ وعمدة كل خطيب وخزانة كل جوال في المواضيع، وإذا قيل:

إن العقل السليم والمنطق السديد لم يألفا في أدمغة أهل الأرض قاطبة ممن أوتي الحكمة شعراً والبيان سحراً مثل دماغ أبي الطيب المتنبي، فلا يكون هذا القول مفرطاً، ولا يكون صاحبه مسرفاً.

وقد أجاد المتنبي ككل شاعر كبير في مختلف الموضوعات، فليس باب من أبواب القول إلا وقد جاء فيه بالمعجز. غير أنه ربما باراه سائر الشعراء في كثير من الفنون. وقد فاقه أبو تمام في الرثاء وربما في المديح، وعلا عليه أبو العتاهية في الزهد وأبو نواس في المجون والحاجزي في الغزل والبهاء زهير في الرقة وابن سهل الإشبيلي في دماثة العشق، ولكن الحكمة هي المملكة التي أبت أن تعطي لغير أبي الطيب قيادها، فجميع الشعراء هناك سائرون تحت لوائه يقال لكل واحد منهم: أطرق كرى. ويقال ذلك بحق.

***

وقد عيب على المتنبي أشياء كثيرة في شعره ذكرها جهابذة النقد، ولست الآن من تعدادها بسبيل، فقد عابوه في اللفظ، وقد عابوه في المعنى، وقد عابوه في المناسبة. ومثل المتنبي من يعاب، ومن يجتهد أهل النقد بأن يثبتوا له نقصاً، لأن الحسناء هي التي لكمال حسنها يبحث لها الناس عن

مكان لا يستوفي فيه التناسب حقه حتى لا يجدوا فيها ذاماً، ولو كنت أملك من الوقت الآن ما يتسع لهذا الغرض لسردت من اعتراضات الأدباء على المتنبي ما يستغرق كتاباً، ويجوز أن أرد كثيراً من أقوال منتقديه، وأن أؤيد البعض الآخر، وأن آتي بما لم أعثر عليه في الكتب. وغاية ما يقال في هذا الباب أن المتنبي له غث يكاد الإنسان لا يصدق صدوره عنه، وأنه ينزل في الأحايين نزولاً يكاد يوقع الشك في نسبة كلامه إليه. وأنه ليحار الإنسان لشاعر مثله يقول ما يقول من المعجزات، ثم يقرنها بما يقرنها من المزعجات، وهذا مما اتفق عليه أهل الأدب في نقد المتنبي، ولكن الطامة الكبرى التي غطت على الجميع قصيدته التي مطلعها:

"ما أنصف القوم ضبة"

فإن الذي يقرؤها ويتأمل معناها أو مبناها يقول إنه قضاء وقدر نزل بالمتنبي ليس غير. ولو لم يكن مقدراً عليه أن يسقط هذه السقطة لما تصور العقل أن عبقرياً يبلغ من البلاغة ما يحير النهي، ويتفيأ من الفصاحة في ظل سدرة المنتهى، يعمد من نفسه إلى شعر يسجل بالسقوط على قائله، ويصير عليه سبة باقية على الدهر. هذا فضلاً عن أن هذا الشعر الساقط كان سبباً في حرمان البشر من تلك العبقرية النادرة، فإن المتنبي لقي حتفه في هذه القصيدة، ولقد حاول الناس أن يعتذروا عن

المتنبي في ارتكابه هذه الصلعاء التي قتلته مادة ومعنى، فحاموا وما نزلوا، ووردوا وما نهلوا، وعندي نسخة من شرح ديوان المتنبي لأبي العلاء من أبدع النسخ خطا وأجودها ضبطاً، ولكنها لا تشتمل على جميع ديوان المتنبي بل على النصف الثاني منه، وقد قرأت فيها خبر الحادثة التي نظم فيها أبو الطيب تلك الأبيات الخاسرة فهو يقول ما خلاصته: "كان ضبة يغدر بكل أحد نزل به أو أكل معه أو شرب ويشتمه. واجتاز أبو الطيب باللطف فنزل بأصدقاء له وسار خيلهم إلى هذا العبد واستركبوه فلزمه المسير معهم. فدخل هذا العبد الحصن وامتنع به وأقاموا عليه وليس سلاحه لهم إلا شتمهم من وراء الحصن أقبح شتم، ويسمي أبا الطيب بشتمه، وأراد القوم أن يجيبه بمثل ألفاظه القبيحة، وسألوه ذلك فتكلف لهم على مشقة وعلم أنه لو سبه لهم معرضاً لم يفهم ولم يعمل فيه عمل التصريح. فخاطبه على ألسنتهم من حيث هو فقال في جمادى الآخرة سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة.

قال ابن جني: "ورأيته وقد قرأت عليه هذه القصيدة ينكر إنشاءها" وكان مثل أبي الطيب في هذه القصيدة مثل بشار كما روى ابن مهروية عن أبيه قال قلت لبشار يا أبا معاذ إنك لتأتي بالأمر المتفارق فمرة تثير بشعرك العجاج فتقول:

إذا مـــا غضـــبنا غضـــبة مضـــرية

هتكنـا حجـاب الشـمس أو قطـرت دمـاً

إذا مـــا أعرنـــا ســـيداً مـــن قبيلـــة

ذرى منـــبر صـــلى علينـــا وســـلما

ثم تقول:

ربـــاب ربـــة البيـــت تصـب الخـل في الزيـت

لهـــا ســـبع دجاجـــات وديـك حســـن الصـــوت

فقال: "إنما أكلم كل إنسان على قدر معرفته، فأنت وعلية الناس تستحسنون ذلك، وأما رباب فهي جارية تربي دجاجاً وتجمع بيضهن، فإذا أنشدتها هذا حرصت على جمع البيض وهو أحسن عندها وأنفق من شعري كله، فإذا أنشدتها في النمط الأول لما فهمته ولا انتفعت به". فهذه صورة المتنبي في هذه القصيدة، ومن أمعن النظر في هذه العبارات تبين له وهن العذر وضعف الدفاع، فإن عبداً كهذا ذكروا عنه ما ذكروا من لؤم أصله وبذاءة لسانه وولوعه بشتم الخلق، لا يعلم الإنسان كيف أن رجلاً في علو مقام المتنبي

يقابل كلامه بمثله، أفلا ضحك منه وهزأ به وقال لمن حوله دعوه وشأنه، وقال لمن أراده أن يجيبه على ألفاظه القبيحة: "لم أكن لأنزل إلى ساحة كهذه وأن أجعل نفسي سفيها بإزاء سفيه". أو أنه إن كان ولا بد من أن يجيب رفقته إلى ما اقترحوه، فقد كان يمكنه وهو أمير الكلام وسلطان سلاطين البيان، أن يأتي من الكناية بما هو أفعل من التصريح، وأن يعرض تعريضاً يبلغ به الغاية بدون تصريح على اللفظ القبيح. وأحسن ما في هذه القصة قول ابن جني أنه قرأ على المتنبي هذه القصيدة وهو ينكر إنشاءها، ويا ليته سير في الآفاق أنها ليست له، وأعلن منها براءته، ولكن القول إذا برز، كالسهم إذا نفذ، وقد كان ينبغي للمتنبي أن يعلم أن مثله إذا قال شيئاً علق باسمه طول الدهر، ولم ينفعه بعد ذلك عذر. إنما هي نازلة سبق بها اللسان لأمر يريده الله فكان منها أن فاتكا الأسدي خال ضبة بن يزيد الضبي عندما بلغته هذه القصيدة، أخذ يترصد المتنبي. فبينما كان المتنبي راجعاً من عند عضد الدولة بن بويه إلى بغداد عرض له فاتك الأسدي في عدة من أصحابه قيل: إنهم كانوا سبعين فارساً. إذ لم أزل أتذكر بيتاً في رثائه:

عـــدت علـــى المتـــنبي مـــن فوارســـها

ســـبعون في العـــد لم تـــنقص ولم تـــزد

وأورد الشيخ إبراهيم اليازجي في شرح والده للمتنبي رواية عن كتاب "الصبح المنبي عن حيثية المتنبي" للبديعي، جاء فيها إن المتنبي مر بدير العاقول ونزل على أحد أصحابه. وكان صديقه هذا قد علم بأن فاتكا الأسدي يترصد المتنبي آخذاً بثأره من هجوه أخته في قصيدة ضبة، وأن مضيف المتنبي أراد أن يرسل مع المتنبي رجالا يدافعون عنه إذا طرأ طارئ، وكان المتنبي عظيم النفس كما هو معلوم، فأبى أن يذهب معه من يحميه. ولما قال له صاحبه قد بلغني أن هذا الجاهل "فاتك الأسدي" يترصدك في الطريق أجابه المتنبي بقوله: "واللّه لو أن مخصرتي هذه ملقاة على شاطئ الفرات، وبنو أسد معطشون بخمس وقد نظروا إلى الماء يتفجر كبطون الحيات لامتنعوا عن الورود". أو ما هو بمعناه مما يصلح أن يقال: إنه كلام فارغ برغم فصاحته ومتانة لغته.

والخلاصة أن المتنبي بنخوته وعنجهيته أبى أن يرافقه أحد وقال: أأبذرق وهذا الجراز في عنقي؟ "وعلى رواية لسان العرب: "أأبذرق ومعي سيفي؟" أي أيذهب معي من يحميني

وهـذا السـيف معـي لأن البذرقـة هـي الخفـارة، وهـي كلمـة فارسية معربة. فذهب المتنبي ومعه ابنه محسد وغلامه مفلح. ولما وصل إلى النعمانية في موضع يقال له الصافية من الجانب الغربي من سواد بغداد عند دير العاقول، طلع عليه بنو أسد فأراد أن يفر فقال له غلامه: لا يتحدث الناس عنك بالفرار وأنت القائل:

الخيـــل والليـــل والبيـــداء تعـــرفني

والســـيف والـــرمح والقرطـــاس والقلـــم

فقال له: قتلتني قاتلك الله" ثم كر راجعاً حتى قتل.

وكأن المتنبي استشعر هذه الواقعة من قبل فإنه قال في قصيدته التي مدح بها أمير طبرية:

والعـــار مضـــاض ولـــيس بخـــائف

مـــن حتفـــه مـــن خـــاف ممـــا قـــيلا

فإنه بعد أن رأى كثرة خيل بني أسد، وعلم أن لا قبل له بهم، لوى عنانه حتى يفر فجاء الغلام وهاج حميته وإباء نفسه بتذكيره إياه بذلك البيت، فنسي الموت خوفاً من أن يقال فيه: إنه قال ولم يفعل، وكر على بني أسد وهو يعلم أنه مقتول لا

محالة. وفي نسخة المعري التي عندي يقول ما يلي: "وخرج من عند عضد الدولة حتى إذا قرب من بغداد وخرج متوجهاً نحو العراق فلما بلغ النعمانية خرج عليه قوم من بني أسد فمانعهم عما كان معه، وأثخن فيهم القتل، فتكاثروا عليه فقتلوه وقتلوا ابنه محسداً في السابع والعشرين من شهر رمضان من سنة أربع وخمسين وثلاثمائة". وفي وفيات الأعيان يقول: إن قتله وقع يوم الأربعاء لست بقين من رمضان وقيل لليلتين. فإن رجعنا إلى رواية المعري فيكون قتله وقع لثلاث بقين من رمضان. فقتله كان نتيجة كبره كما أن كبره كان سبب حرمانه طول حياته المناصب التي كان يصبو إليها. فقد كان الملوك يخافونه، وكان كافور الإخشيدي وعده بولاية فلما رأى تعاليه بنفسه وشدة بأوه، لم يوله عملاً وكان قد طلب منه ولاية صيداء فلم يعطه إياها فعوتب في ذلك فقال: "يا قوم من ادعى النبوة بعد محمدﷺ أما يدعي المملكة مع كافور؟" ولولا شدة خنزوانته لما فارق سيف الدولة الذي كان يحبه ويبره ويصبر عليه وحسبكم القصيدة التي أنشده إياها والتي مطلعها:

"واحر قلباه ممن قلبه شبم"

وفيها من الدلال والتسحب والعظمة والتكبر ما لا يعجب الإنسان بعده من بقاء المتنبي طول حياته يرمي أغراض الحظ ولا يقرطس. ولقد أورد الشيخ إبراهيم اليازجي في العرف الطيب شيئاً من خبر المتنبي يصح الرجوع إليه. وشرح والده لديوان أبي الطيب هو من الشروح التي يوثق بها، ولكني رأيت مواضع أخذت عليه بها وذلك عند قوله:

فتى ما سرينا في ظهور جدودنا

إلى عصره إلا نرجي التلاقيا

فإنه جعل الجدود بمعنى الحظوظ وقال إننا ما ركبنا مطايا حظوظنا إلى عصره إلا لنتلقاه. وإنما أرى أنه يريد أن يقول: إننا ما تناسلنا من أصلاب أجدادنا حتى وصلنا إلى عصره إلا لنفوز بلقائه.

وقد تختلف الأنظار وتتباين الأفكار. وللمتنبي أربعون شرحاً فيما يقال، وكم جاء فيها من الاختلافات في تأويل معانيه، وهذا أول دليل على علو مقامه، إذ لم يعهد أن شاعراً من الشعراء اهتم الأدباء بشرح ديوانه كالشاعر أبي الطيب. وللأديب الراسخ الأستاذ شفيق جبري من دمشق كتاب عن المتنبي قرأت منه شذرات أعجبتني. وعلى كل حال فقد كان

المتنبي مفخرة عربية كبرى تدين بها هذه الأمة في التاريخ العام ولا يكابرها أحد وتحتج به لدى الإنسانية بأجمعها ولا يقال لها: بالغت جنيف 25 ربيع الأول سنة 1354.

أبو الطيب المتنبي
تاجر من تجار الأدب

بقلم الأستاذ سليم عبد الأحد

الشعر شعور تجيش به نفس الإنسان فيعبر عنه بألفاظ ذات نبرات تتساق على أوزان مختلفة وأوضاع شتى. ولم يكن للشعر في زمن الجاهلية روابط تقيده فلما جاء الخليل استنبط قيوداً حصر بها جميع أشعار العرب. قيل إنه مر يوماً في البصرة فسمع دق المطارق بأصوات مختلفة وكان يسمع من دار "دق قد" ومن دار أخرى "دق دق" فبنى على الأول السبب الخفيف وعلى الثاني الوتد المجموع. ثم أخذ يفرع عليهما بقية الأجزاء التي استتمها واستنبط منها علم العروض.

وليس معنى ذلك أن العرب لم تكن تقول الشعر قبل زمن الخليل بل لقد كانت تقوله بالسليقة. وفي الحقيقة أن الشعر بلغ في الجاهلية أعلى المراتب ونبغ فيه أفراد سارت بذكرهم

الركبان وكانت أشعارهم مضرباً للأمثال. ولم يذكر التاريخ أمة بلغ الشعر عندها المنزلة التي بلغها عند العرب. فكان الشاعر العربي مرجواً ومخوفاً معاً يتوسل بشعره لنيل الحظوة عند الملوك والأمراء. وبمرور الزمن أصبح لكل أمير شاعر يلازمه ويتغنى بمديحه ويرتزق مما ينفحه به من الأعطيات. ولعله ما خفض قدر الشعراء شيء مثل تلك الأعطيات. فبعد أن كان الشعر وسيلة للإعراب عن عواطف النفس وعما تجيش به القريحة أصبح وسيلة للارتزاق يستغله الشاعر فينطق به كلما ألجأته الفاقة وسولت له نفسه ابتزاز أموال الغير. ولذلك وصف بعضهم الشعراء بالكذب والرياء وقالوا إن أعذب الشعر أكذبه. ونشأت طائفة من الشعراء تكيل الثناء جزافاً لم يستحقه ولمن لا يستحقه.

ومن نكد الأقدار أن أكثر الشعراء المداحين كانوا إذا لم يكافأوا عن شعرهم انقلبوا إلى الذم والهجو لأن الشعر عندهم كان وسيلة لا غاية ولأن العرض في نظرهم كان فوق كل اعتبار آخر. فإذا خيب الممدوح ظنهم أطلقوا عليه سيلاً من قوارص المنظوم وشهروا به تشهيراً. وقلما سلم من هذه النقيصة أحد من الشعراء الذين زاولوا صناعة المديح. وهذا مما يخفض قدر الشعر لأن الشاعر الذي تمعن في الخيال إلى ما

وراء العالم المنظور ثم ينقلب مرتزقاً يتاجر بشعره إنما يبيع كرامته بالعرض.

وغريب أن شاعراً فذاً كأبي الطيب لم يسلم من هذه النقيصة إذ لم ينزه قلمه عما يجب أن تعف عنه النفس بل وقف قريحته على مدح الأمراء والأغنياء طمعاً في نوالهم. فإذا أجزلوا له النوال أجزل لهم الثناء وإذا طووا عنه الكشح قلب لهم ظهر المجن وسلقهم بألسنة حداد. ذلك لأن عرض الدنيا كان في نظره كل شيء. فلا شرف ولا مجد ولا جاه ولا سلطان إلا لمن وفرت أمواله واتسعت ثروته وليكن خلقه كيف كان، وليكن طيب العنصر فما طيب العنصر بنافع له. أو ذليل النفس فما الذلة بناقصة من متعته بالحياة. أو ليس هو القائل:

هما خلتان ثروة أو منية لعلك أن تبقى بواحدة ذكرا

وهو القائل أيضاً:

فلا ينحلِل في المجد مالك كلُّه

فينحلّ مجد كان بالمال عقده

ودبّره تدبير الذي المجد كفه

إذا حارب الأعداء والمال زنده

فـــلا مجـــد في الـــدنيا لمـــن قـــل مالـــه

ولا مـــال في الـــدنيا لمـــن قـــل مجـــده

وفي هذا ما يذكرنا بالقول المأثور عن نابليون: "إن المال عصب الحرب" وعلى كل فقد كان حرص المتنبي على المال مضرباً للأمثال، حتى يقال إنه ما كان ينتقل من مكان إلى مكان إلا ويحمل معه متاعه وكنوزه. جاء في الصبح المنبي عن لسان أبي نصر محمد الجمالي أن المتنبي وافاه ومعه بغال موقرة من الذهب والفضة والطيب والملابس والتجملات النفيسة والكتب الثمينة والأدوات الكثيرة لأنه كان إذا سافر لا يترك في منزله درهماً ولا شيئاً يساويه.

فشاعر مثل هذا يحرص على المال ويسعى إلى كنزه ما كان ليحجم عن تسخير قريحته للمدح أو الهيجاء كيفما اقتضت الحال. وفي الحقيقة أن الشاعر في ذلك العهد ما كان يرى من العار أن ينقلب من المديح إلى نقيضه وقد كان يفعل ذلك انسياقاً وراء المال وطمعاً في أعراض الدنيا. وقلما تجد بين القوم من كان يقصر قريحته على المديح فقط وينزهها عن الهجاء. وهذا دليل على أن النوال كان غاية أكثر الذين مدحوا الملوك والأمراء في ذلك العصر كما في غيره من

العصور وأن المال هو الذي كان يملك على الشعراء أمرهم ويخرجهم عن الوعظ والحكم والانذار.

وقد كان تزلف أبي الطيب إلى كافور الأخشيدي طمعاً في المال والولاية. ألا تراه يعبر عن تلك الغاية بقوله مخاطباً كافوراً:

أبا المسك هل في الكأس فضل أنالـه

فإني أغنى منذ حين وتشرب

إذا لم تنط بي ضيعة أو ولاية

فجودك يكسوني وشغلك يسلب

وأسمعه يقول في موضع آخر:

وهل نافعي أن ترفع الحجب بيننا

ودون الذي أملت منك حجاب؟

وقوله: "أملت منك" تعويض بوعد كافور إياه بالولاية وتذكير له.

ومن سوء حظ المتنبي أنه بلغ من الشعر مرتبة قصر عنها فحول الشعراء فزاد ذلك في حساده والناقمين عليه. ولشدة حبه

المال وحرصه عليه انقلب غير مرة على أصدقائه الذين وصلوه وخلعوا عليه. فهجاهم ولم ينزه قلمه عن سلقهم بأقذع ما تجيش به قريحة الشاعر. وهذا من جملة ما أحفظ الكثيرين عليه حتى لقد نفى بعضهم الشاعرية عنه كابن خلدون وغيره، مع أن أكثر علماء الأدب رجحوا شعره من حيث الصياغة على شعر أبي تمام والبحتري.

والمجال لا يتسع لإيراد جميع القصائد التي هجا بها المتنبي أصحابه وغير أصحابه ممن أحسنوا إليه وأجزلوا له النوال. فقد انقلب على بعض الذين أصاب منهم خيراً ولم ينج من ذلك أعز أعزائه ونعني به سيف الدولة علي بن حمدان العدوي صاحب حلب. فقد كان للمتنبي عنده في أول الأمر منزلة سامية إذ حسن موقعه عنده وأحبه وقربه وأجازه الجوائز السنية. وكان يجري عليه كل سنة ثلاثة آلاف دينار خلا الإقطاعات والخلع والهدايا المتفرقة. ولسبب يطول بنا شرحه وقعت بينهما وحشة ففارقه وقدم مصر ومدح كافوراً الأخشيدي (وكان من أعداء سيف الدولة) فأجزل كافور صلته وخلع عليه. وكان أبو الطيب يطمع في تولي عمل من أعمال مصر. فلما لم يحقق كافور أمنيته انقلب عليه وهجاه بعدة قصائد تعد من عيون الشعر من حيث الصياغة الفن،

ولكنها من أدل ما نظمه أبو الطيب على حقيقة خلقه. قيل إن آخر ما مدح به كافوراً الأخشيدي قصيدته البائية التي يقول في مطلعها:

مني كن لي أن البياض خضاب

فيخفى بتبييض القرون شباب

ثم وقعت بينهما وحشة فأقام أبو الطيب سنة لا يلقى فيها كافوراً وهو يعمل في الخفاء على الرحيل عنه. فأعد الإبل وخلف الرحل. وجاء يوم عرفة سنة خمسين وثلاثمئة قبل خروجه من مصر بيوم واحد. فهجاه بقصيدة لو قيلت في غير كافور لتمنى الموت. وهذه القصيدة على ما بها من قذع لاذع من عيون الشعر التي يحفظها تلاميذ المدارس وقد سار مطلعها مثلاً. وإليك بعض أبياتها:

عيدٌ بِأَيَّةِ حالٍ عُدتَ يا عيدُ

بِما مَضى أَم بِأَمرٍ فيكَ تَجديدُ

إِنّي نَزَلتُ بِكَذّابينَ ضَيفُهُمُ

عَنِ القِرى وَعَنِ التَرحالِ مَحدودُ

جـــودُ الرِجـــالِ مِـــنَ الأَيـــدي وَجـــودُهُمُ
مِـــنَ اللِســـانِ فَـــلا كـــانوا وَلا الجـــودُ
مـــا يَقـــبِضُ المَـــوتُ نَفســـاً مِـــن نُفوسِـــهِمُ
إِلا وَفي يَـــــدِهِ مِـــــن نَتنِهـــــا عـــــودُ
العَبـــــدُ لَـــــيسَ لِحُـــــرٍّ صـــــالِحٍ بِـــــأَخٍ
لَـــــو أَنَّـــــهُ في ثِيـــــابِ الحُـــــرِّ مَولـــــودُ
لا تَشـــتَرِ العَبـــدَ إِلّـــا وَالعَصـــا مَعَـــهُ
إِنَّ العَبيـــــــدَ لأَنجـــــــاسٌ مَناكيـــــــدُ

وليست هذه بأولى القصائد التي هجا بها كافوراً ولا بأخراها. اسمعه يخاطبه وقد نظر إلى شقوق في رجليه:

وتعجـــبني رجـــلاك في النعـــل إنـــني
رأيتـــك ذا نعـــل إذا كنـــت حافيـــاً
وإنـــك لا تـــدري ألونـــك أســـود
مـــن الجهـــل أم قـــد صـــار أبـــيض صـــافياً

ويـــذكرني تخيـــيط كعبـــك شـــقه
ومشـــيك في ثـــوب مـــن الزيـــت عاريـــاً
ومثلـــك يـــؤتى مـــن بـــلاد بعيـــدة
ليضـــحك ربـــات الحـــداد البواكيـــا

واسمعه أيضاً يقذعه بهذه الأبيات اللاذعة وهي قوله:

لا يُنجِزُ الميعـادَ في يَومِـهِ وَلا يَعـي مـا قـالَ في أَمسِـهِ
وَإِنَّمـا تَحتـالُ في جَذبـهِ كَأَنَّـكَ المَلّـاحُ في قَلسِـهِ
فَلا تُرَجِّ الخَيرَ عِندَ اِمرِئٍ مَرَّت يَدُ النَخّاسِ في رَأسِهِ

وقد اعترف المتنبي بأنه ما كانه يمدح كافوراً إلا ليحتال عليه بالشعر لأخذ ماله. فلما أقصاه كافور وقطع عنه النوال انقلب المتنبي عليه وأخذ يهجوه. قال يسخر من أهل مصر خضوعهم لكافور:

وماذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكا
بها نبطي من أهل[1] السواد يدرس أنساب أهل الفلا
وأســـود مشـــفره نصـــفه يقال له أنت بدر الدجى

[1] وصل همزة "أهل" لإقامة الوزن.

وشعر مدحت به الكركد ن بين القريض وبين الرقى

فما كان ذلك مدحاً له ولكنه كان هجو الورى

وهجاه بقصائد أخرى كثيرة وهجا أمه ايضاً. من ذلك قوله في كافور ملمحاً إلى مفارقته لسيف الدولة:

وفارقت خير الناس قاصد شرهم

وأكرمهم طراً لأ لأمْهم طراً

فعاقبني المخصى بالغدر جازياً

لأن رحيلي كان عن حلب غدرا

وقد قيل للخنزير أني مدحته

ولو علموا قد كان يهجى بما يطرى

ثم انظر منزلة المال من نفس المتنبي إذ نزل مرة في أرض حسمى برجل يقال له وردان بن ربيعة الطائي فاستغوى عبيد أبي الطيب فجعلوا يسرقون أمتعته. فلما شعر أبي الطيب بذلك ضرب أحد عبيده بالسيف فأصاب وجهه وأمر الغلمان فأجهزوا عليه. ثم قال يهجو وردان ويتهمه بأنه كان يستغوي أولئك العبيد بامرأته ويحرضهم على سرقة أمتعته لأجلها:

مررنا الأمس في حسمى بعبد يمـج اللـؤم منخـره وفـوه

أشـذ بعرسـه عـني عبيـدي فـاتلفهم ومـالي أتلفـوه

***

نستخلص مما تقدم أن أبا الطيب المتنبي كان يتاجر بشعره وأن المال كان له عنده منزلة سامية وأن مطامحه ومطامعه هي التي أحفظت عليه الكثيرين ممن هجاهم. والمجال لا يتسع لإيراد حكايات جميع الذين هجاهم والقصائد التي قالها فيهم. وفي الحقيقة أن لسانه كان سبب هلاكه. وتفصيل ذلك أنه هجا مرة "ضبة" بن يزيد العتبي (ويروى "العيني" بالياء المثناة بعدها نون) وكان ضبة غداراً بكل من نزل به. واجتاز أبو الطيب في جماعة من أشراف الكوفة فامتنع منهم، فهجاه أبو الطيب بقصيدة يقول فيها:

يـا قـاتلاً كـل ضـيف غنـاه ضـيح وعلبـه

كـذا خلقـت ومـن ذا ال ذي يخـالف ربـه

مـا كنـت إلا ذبابـاً نفتـك عنـا مذبـه

قال في الصبح المنبي يصف هلاك أبي الطيب: قال الخالديان كتبنا إلى أبي نصر محمد الجمالي نسأله عما

صدر لأبي الطيب المتنبي بعد مفارقته عضد الدولة وكيف كان قتله. وأبو نصر هذا من وجوه الناس في تلك الناحية وله فضل وأدب وحرمة. فأجابنا عن كتابنا جواباً طويلاً يقول في أثنائه: أما ما سألتم عنه من خبر مقتل أبي الطيب المتنبي فأنا أسوقه لكم وأشرحه شرحاً بيناً: اعلما أن مسيره كان من واسط يوم السبت لثلاث عشرة ليلة بقيت من رمضان سنة ثلاثمائة وأربع وخمسين. فقتل بضيعة تقرب من دير العاقول لليلتين بقيتا من شهر رمضان. والذي تولى قتله وقتل ابنه وغلامه رجل من بني أسد يقال له "فاتك" بن أبي جهل بن فراس بن شداد الأسدي. وكان من قول "فاتك" له لما قتله: "قبحاً لهذه اللحية يا قذاف المحصنات" ذلك أن "فاتكا" هذا هو خال ضبة بن يزيد العيني الذي هجاه أبو الطيب بقوله:

"ما انصف القوم ضبه وأمه الطرطبه"

فيقال أن "فاتكا" داخلته الحمية لما سمع ذكر أخته أم ضبة بالقبيح في هذه القصيدة. فكان ذلك سبب قتل أبي الطيب واصحابه وذهاب ماله. وأما شرح الخبر فإن "فاتكا" هذا صديق لي، وقد سمى "فاتكا" لسفكه الدماء وإقدامه على الأهوال، فلما سمع القصيدة التي هجا بها ضبة اشتد

غضبه ورجع على ضبة باللوم وقال له: "كان يجب أن لا تجعل لشاعر عليك سبيلا" وهو يضمر السوء على أبي الطيب ولا يتظاهر به. ثم بلغه انصراف أبي الطيب من بلاد فارس وتوجهه إلى العراق وعلم أن اجتيازه بجبل دير العاقول. فلم يكن ينزل عن فرسه ومعه جماعة من بني عمه يرون في المتنبي مثل رأيه. فكانوا لا يزالون يتنسمون أخباره من كل صادر ووارد، وكان كثيراً ما ينزل عندي، فقلت له يوماً وقد جاءني وهو يسأل قوماً مجتازين عن المتنبي: "أراك قد أكثرت السؤال عن هذا الرجل فما تريد منه إذا لقيته؟" فقال: "ما أريد إلا الجميل وعذله على هجاء ضبة". فقلت: "هذا لا يليق بأخلاقك" فتضاحك ثم قال: "يا أبا نصر، والله لئن اكتحلت عيني به أو جمعتني وإياه بقعة لأسفكن دمه وأصرم حياته إلا أن يحال بيني وبينه بما لا أستطيع دفعه" فقلت له: "كف عافاك الله عن هذا وارجع إلى الله فإن الرجل شهير الاسم بعيد الصيت ولا يحسن منك قتله على شعر قاله. وقد هجت الشعراء الملوك في الجاهلية والخلفاء في الإسلام فما سمعنا بشاعر قتل بهجائه..." فقال: "يفعل الله ما يشاء". وانصرف. وما مضى بعد هذا إلا أيام قليلة حتى وافاني المتنبي ومعه بغال موقرة من الذهب والفضة والطيب والملابس والتجملات النفيسة والكتب الثمينة

والأدوات الكثيرة لأنه كان إذا سافر لا يترك في منزله درهماً ولا شيئاً يساويه... فتلقيته وأنزلته في داري وسألته عن أخباره وعمن لقى في تلك السفرة. فعرفني من ذلك ما سررت به له. وأقبل يصف ابن العميد وفضله وكرمه وعلمه وكرم عضد الدولة ورغبته في الأدب وميله إلى الأدباء فلما أمسينا قلت له: "يا أبا الطيب. علام أنت مجمع؟" قال: "على أن اتخذ الليل مركباً فإن السير فيه أخفى علي" قلت: "هذا هو الصواب" رجاه أن يخفيه الليل ولا يصبح إلا وهو قطع بلداً بعيداً. وقلت له: "والرأي أن يكون معك من رجال هذه البلدة الذين يعرفون هذه المواقع المخيفة جماعة يمشون بين يديك إلى بغداد". فقطب وجهه وقال: "فما تريد بذلك؟" قلت: "أريد أن تستأنس بهم في الطريق" فقال: "انا والجراز في عاتقي. فما بي حاجة إلى مؤنس غيره". قلت: "الأمر كما تقول. ولكن الرأي في الذي أشرت به عليك" فقال: "تلويحك ينبئ عن تعريض، وتعريضك ينبئ عن تصريح، فعرفني جلية الأمر" قلت: "إن هذا الجاهل فاتكا الأسدي كان عندي من ثلاثة أيام وهو غير راض عنك لأنك هجوت ابن أخته ضبة وقد تكلم بما يوجب الاحتراز والتيقظ. ومعه أيضاً جماعة نحو العشرين من بني عمه يقولون مثل قوله". فقال غلامه: "الصواب يا مولاي ما أشار به أبو نصر،

خذ معك عشرين رجلاً يسيرون بين يديك إلى بغداد فإن ذلك أحوط". فاغتاظ أبو الطيب من غلامه غيظاً شديداً وشتمه شتماً قبيحاً وقال: "والله لا أرضى أن يتحدث الناس بأني سرت في خفارة أحد غير سيفي". قال أبو نصر: "فقلت يا هذا، أنا أوجه قوماً من قبلي في حاجة لي يسيرون بمسيرك وهم في خفارتك" فقال: "والله لا فعلت شيئاً من هذا". ثم قال: "يا أبا نصر، أبنجو الطير تخوفني ومن عبيد العصا تخاف علي؟ والله لو أن مخصرتي هذه ملقاة على شاطئ الفرات وبنو أسد معطشون لخمس وقد نظروا الماء كبطون الحيات ما جسر لهم خف ولا ظلف أن يرده، معاذ الله أن أشغل فكري بهم لحظة عين"، فقلت له: "قل إن شاء الله". فقال: هي كلمة مقولة لا تدفع مقضيا ولا تستجلب آتياً" ثم ركب فكان آخر العهد به، ولما صح عندي خبر قتله وجهت من دفنه ودفن ابنه وغلمانه وذهبت دماؤهم هدراً.

فأنت ترى من كل ما تقدم أن أبا الطيب لم يكن عف اللسان بل كان من أبلغ الهجائين، وقد ركب في هجائه للناس متن الشطط ولقي بسببه حتفه، قيل إنه لما عرض له فاتك أحس المتنبي بالضعف فعمد إلى الفرار فقال له غلامه: لا يتحدث الناس عنك بالفرار وأنت القائل:

الخيـــــل والليـــــل والبيـــــداء تعـــــرفني

والســـــيف والـــــرمح والقرطـــــاس والقلـــــم

فكر راجعاً وظل يقاتل حتى قتل.

بين المتنبي وبعض الشعراء

"ليس غرضنا من نشر ما يلي إثبات السرقة على أبي الطيب. ولكننا نريد المقارنة بين بعض أبياته وأبيات بعض الشعراء التي تقاربت فيها الخواطر.

قال أبو تمام:

مقيم الظعن عندك والأماني وإن قلقت ركابي في البلاد

وقال المتنبي:

وإني عنك بعد غد لغاد وقلبي عن فنائك غير غاد

وقال البحتري:

وأحب أقطار البلاد إلى الفتى أرض ينال بها كريم المطلب

وقال المتنبي:

وكل امرئ يولي الجميل محبب

وكل مكان ينبت العز طيب

وقال إبراهيم الكاتب:

أحـــــاول أمـــــراً و القضـــــاء يعوقـــــه

فبـــــيني وبـــــين الـــــدهر فيـــــه طـــــراد

ولـــــولا الـــــذي حاولـــــت صـــــعب مرامـــــه

لســـــــاعدني فيـــــــه عليـــــــه شـــــــداد

وقال المتنبي:

أهـــــم بشـــــيء والليـــــالي كأنهـــــا

تطـــــاردني عـــــن كونـــــه وأطـــــارد

وقال ابن الرومي:

كـــــذا قضـــــى للأقـــــلام مـــــذ خلقـــــت

أن الســـــيوف لهـــــا مـــــذ أرهفـــــت خـــــدم

وقال المتنبي:

حتـــــى رجعـــــت وأقلامـــــي قوائـــــل لـــــي

المجـــــد للســـــيف لـــــيس المجـــــد للقلـــــم

اكتب بنا أبداً قبل الكتاب به

فإنما نحن للأسياف كالخدم

وقال بشار:

حشاشة ودعتني يوم بينهم

وشيعتهم وخلتني وأحزاني

وقد أشاروا بتسليم على حذر

من الرقيب بأطراف وأجفان

وقال المتنبي:

حشاشة نفس ودعت يوم ودعوا

فلم أدر أي الظاعنين أشيع

أشاروا بتسليم فجدنا بأنفس

تسيل من الآماق والسم أدمع

شهرة المتنبي
شهرة العظمة والفن الخالد

بقلم الأستاذ محمد محمد توفيق

قليل من الناس بلغوا مبلغ المتنبي في الشهرة مع أن العباقرة والأفذاذ يملؤون صفحات التاريخ بأخبارهم وآثارهم. ولو أن الآداب العربية أتيح لها ما أتيح لآداب الغرب من الذيوع بالترجمة والنقل، لكان المتنبي في مقدمة المشاهير الذين يلهج الناس بذكرهم في الشرق والغرب على حد سواء. ولو أن الغربيين قرأوا شعر المتنبي لأذهلتهم تلك العبقرية الجبارة وهذا الروح الوثاب الغلاب الذي يكتسح ثم يكتسح حتى لا تكاد ترى أمامه أثراً لمنافس.

نعم... لو قرأ الغربيون شعر المتنبي لوقفوا أمامه ذاهلين. ولست ألقي القول على عواهنة، فقد أذهلت رباعيات الخيام أدباء الغرب وقراء الأدب فيه، وفتحت أمامهم آفاقاً جديدة لم

يروها من قبل، وتألق نجم هذا الشاعر الفارسي في أوربا وأمريكا كما لم يتألق قط في المشرق، مع أن الخيام دون المتنبي مرتبة فهو شاعر يشدو على وتر واحد بينا يشدو شاعرنا على أوتار هي جماع الفن والحكمة والفلسفة.

وأول ما نسجله من أمر هذه الشهرة التي لازمت المتنبي في حياته ولازمت تاريخه بعد موته أنها مرتكزة على أسس متينة ودعائم قوية.

والشهرة عندنا هي الصمود للدهر ومغالبة معاول الهدم وما أكثرها! وقد صمدت شهرة المتنبي في حياته فتحطمت دونها معاول الهدامين الذين في نفوسهم حقد وسخيمة، وفي قلوبهم تغلي مراجل الحسد وتلهب نار البغضاء، والذين ما زالوا يذكرون مثالبه ونقائصه فيعترفون أو يعترف حسدهم بشاعريته التي لا تجارى على وغر مكنون في الصدور..

ثم صمدت شهرته للنقاد الزارين عليه بنقدهم بعد مماته مع أن فريقاً منهم حاولوا هدمها بمعاول هيهات أن تهدم هذا التراث الأدبي، فبقي المتنبي حياً ولم يذهب رسمه ولم يعف أثره.

ومما يزيد في رسوخ هذه الشهرة أنها بلغت غايتها على الرغم من أن شعر المتنبي لم يكن كالنسمات تهب رخاء، أو كزقاق الخمر تروي الشاربين، بل كان شعراً جليلاً يهتف به شاعر عبقري فيذكي في القلوب نار الحماسة والنبالة، ويمتع الأنظار والألباب بألوان من الفن الرفيع يتطاول إليها الناس ويتشوفون لها دون أن يبلغوها. ومثل هذا الشعر لا يقدره حق قدره إلا الراسخون في دراسة الآداب الرفيعة التي تسمو بالأذواق إلى ما هو أعلى من أذواق العامة والمترفين من عشاق الأدب المخنث. فبهذا الشعر خلد المتنبي، وعلى هذا الأساس المتين بني شهرته ونقش اسمه على الصخر، بينما خط معظم معاصريه من الشعراء أسماءهم على الرمال.

وإنك لتعجب وأنت تقرأ ديوانه كيف أنه استطاع أن يجمع كل هذه الأقوال المأثورة والأبيات الحكيمة في صعيد واحد، لعلمك أن معظم السابقين واللاحقين من الشعراء كانوا يتمخضون بالبيت المأثور بعد الهذيان الطويل.

ثم إنك لتعجب من هذا الروح الغلاب الذي رجح الشعراء وسادهم دون أن يعدو طوره، وتعجب لادعائه النبوة وقرنه اسمه بأسماء الأنبياء والمرسلين، ولنزوله بالدين والكتب السماوية إلى ميادين المدح والجدال والمفاخرة، ولمخالفته ما درج عليه

النـاس مـن مـألوف القـول والعمـل، ولتلـك الحـوادث الجسـام واندماجه فيها مادحاً وهاجياً وحكيماً بعد أن حلب الدهر أشطره، ولاعتداده بنفسه وشموخ أنفه وخيلائه ولتجاربه وثقافته التي يندر لها مثيل.

نعم إنك تعجب لكل هذا إذ تفاجأ به أول وهلة وأنت تقرأ ديوانه وأخباره، فتعود إلى نفسك وتقول: لا جرم إذا خلد المتنبي وطبقت شهرته الآفاق...

ثم إن المتنبي تفرد بنزعة أخرى غير نزعة الشاعر الفنان، إذ كان يحسب أنه أرفع من الشعر والشعراء منزلة، وأن الشعر مطيته إلى الملك والسؤدد، ويرى أن بنفسه أنفاً أن تسكن اللحم والعظم.. والحق يقال إنه كان عظيماً في شعره وحركاته وسكناته، فقد كان شعره على ذباب سيفه وسية قوسه، وكانت له أبيات تهول، وقد أضفت عظمة نفسه على شعره هذا الجلال والمدائح.. فلا عجب أن تشتهر قصائده وهي من وحي الملك والبطولة والفن الرفيع.

أما منافسوه من الشعراء فقد كانت قصارى آمالهم صلات الأمراء وعطاياهم، وكان الخوف من ضياع هذه العطايا سياجاً يحول بينهم وبين إشهار ما زكنوه وما شعروا به... لقد كانوا أذناباً ولم يكونوا سادة. وكانوا ملهاة وأداة

من أدوات التسلية كالأقزام في بلاط الفراعنة سواء بسواء اللهم إلا عند الفخر وهنا أيضاً كانوا ينطقون بلسان سادتهم وأمرائهم، فلم يجرؤ أحدهم على مجاراة المتنبي في قوله:

وما الدهر إلا من رواة قصائدي

إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا

ولم يدع أحدهم أنه (خلق) أميراً من الأمراء بل كان الأمراء هم الذين يخلقونهم، بينا يحق للمتنبي أن يفخر بأنه (خلق) سيف الدولة وغير سيف الدولة بمدائحه وروائع آياته... بل نذهب إلى أكثر من ذلك فنقول إنه (خلق) كافوراً بهجائه المقذع وسخريته اللاذعة... فلولاه لما تمثل كافور في أذهاننا عبداً خصياً بطيناً مشفره نصفه وتكاد تحسبه منتعلاً وهو حافي القدمين.

وقد كان شعور المتنبي بتفوق شعره على شعر أخصامه عظيماً، حتى أن هذا الشعور انقلب إلى إعجاب بالنفس وخيلاء لا حد لتطاولها مما حداه أن يقول:

أفي كل يوم تحت ضبني شويعر

ضعيف يقاويني، قصير يطاول؟

فانظر إلى كلمة (شويعر) هذه وتأمل فيما تحويه من معاني الزراية والسخرية الأليمة!

ثم إن جلال شعره وفخامة جرسه جعله يسير في البلاد ويؤثر في الناس أضعاف ما يؤثر شعر منافسيه وحساده. وهذا ما جعل الأمراء يستقدمونه ويجزلون له العطاء، وقد بلغ قلق بعضهم على لقائه وحرصهم على مجيئه حد الضحك، ككافور الذي كان يهذي بالمتنبي وبقرب قدومه ولا يزال يتراوح بين اليأس والرجاء حتى يقبل فتهدأ أعصابه ويطمئن قلبه.

وقد ساعده على بلوغ تلك المكانة عند الأمراء والولاة عدم استقراره في حاشية أمير واحد أمداً طويلاً، وعدم قصره مدائحه على رجل واحد، فكان يشد الرحال إذا سئم المقام في قصر أمير أو وزير، ويذهب إلى غيره ليمدحه ولينعم عنده شهراً أو عاماً أو بضعة أعوام تاركاً وراءه الإعجاب بشعره والحقد عليه، مستقبلاً وجوهاً جديدة متقبلاً عطايا جزيلة لا يدفع لها ثمناً من كرامته وعزة نفسه، ومن هنا تهافت عليه طلاب المدح فغلا ثمنه في سوق الشعر بينا كسدت بضاعة جل منافسيه فعمدوا إلى غيظه.

ومما زاد في غيظه منافسيه وحساده أن شعر خلا أو كاد يخلو من الغزل والتخنث مخالفاً بذلك جمهرة الشعراء القدماء منهم والمحدثين، وأنه لم يكن متهالكاً على النساء شأن غيره من محبي الترف وأسارى الشهوة الجامحة، ولم يكن للخود منه إلا ساعة ثم بينه وبينهن "فلاة إلى غير اللقاء تجاب"، ثم إنه لم يكن سكيراً ولا عربيداً فخلا شعره من أوصاف الخمور إلا فيما ندر، وظل جافاً مطهراً إلى آخر بيت في ديوانه. كل ذلك كان ترفعاً عما درج عليه الناس من مألوف التغزل والمنادمة، وسموا بالشعر والفن إلى قنن الرجولة والبطولة.

والمتنبي هو الشاعر العربي الوحيد فيما نعلم الذي كان لا يتهيب الأمراء بل يدخل عليهم ويخاطبهم مخاطبة الند للند والصديق للصديق، وقد روى أنه كان ينشد الشعر وهو جالس أمام سيف الدولة، وأن طاهراً العلوي أجلسه على سريره وجلس بين يديه. وهذا نصر عظيم للشاعر وللشعر نفسه، فقد بيض المتنبي وجهه بعد أن سوده الشعراء المادحون المستضعفون، وأن شعراً يقوله شاعر معتداً بنفسه مترفعاً عما درج عليه الشعراء من الصغار والزراية لقمين بأن يذيع فيلهج به كل لسان.

ولست أريد هنا أن أخوض في عباب شعر المتنبي الزاخر فقد قتله غيري بحثاً، ولكني أريد أن أضيف فخامته وروعته إلى تلك الصورة التي رسمتها لحياة شاعرنا الفذ وشمسها دالفة إلى الغروب لتستقبل شمس عظمته الخالدة وشهرته التي طبقت الآفاق وهو مكين في ذراها.

هل كان المتنبي متديناً؟
ضعف العاطفة الدينية عند أبي الطيب

بقلم الأستاذ علي أدهم

أبو الطيب المتنبي أقوى شعراء العربية نبضات قلب، وأبعدهم منزع فكر، وأعمقهم حكمة ومن أصدقهم إفصاحاً عن خفايا النفس، وأعرفهم بأسرارها. فلا عجب إن كان بعد ذلك أبعدهم شهرة وأخلدهم أثراً. ولست أعرف شاعراً من شعراء العرب حظي من إعجاب الخاصة والعامة بمثل ما حظي به المتنبي. وبرغم الزمن الطويل الذي مر على وفاته، وتغير الأحوال وتبدل المعايير الأدبية، وتباين أساليب الفهم واختلاف الذوق فإن شهرته لم تخمد ولا يزال اسمه سائراً على الألسنة وشعره مضرب الأمثال ومستودعاً من مستودعات الحكمة.

والمتنبي أنموذج صالح لتمثيل خصائص الشعر العربي. ولا نزاع في أن شاعراً واحداً بالغاً ما بلغ من القدرة والافتنان لا يكفي لتمثيل عبقرية شعب في ظلالها المختلفة وشياتها المتلونة.

وقد لا يكفي انقطاع شاعر ممتاز لتمثيل جانب اللهو والمجون أو جانب الزهد والورع أو جانب القوة والأمل أو جانب اليأس والألم. وأرجح أن المتنبي أقرب شعراء العربية إلى التمثيل العام لعبقرية الشعر العربي. ولذلك انعقد عليه الإجماع وعمرت بذكره المجالس وحفلت بأخباره السير وبقي شعره على الزمن.

والمتنبي لا يستثير إعجابنا ولا يهفو بألبابنا من ناحية إثارة الخيال واستفزاز العاطفة وحدها وإنما لأنه يقدم لنا مادة ثمينة للتفكير والتأمل ويعرض علينا نظرات في الحياة صائبة وخواطر عن الإنسان جديرة بالنظر والاعتبار. وواضح أن أسلوب المتنبي الذي يغلب عليه تحري الضخامة والقوة لا يصلح للتعبير عن المشاعر الرقيقة وهمسات الروح الداخلية وضروب الجمال الخفي وألوانه الصامتة ونغماته الخافتة. ولكنه يطيل التفكير في الحياة ويستخلص الحكمة من التجارب ويعطيك في شعره عصارة صالحة ليس فيها حلاوة ولا نداوة وليس لها موسيقية صافية النغم عذبة الرنين، فكل كلمة عليها طابع القوة وسمة العنف. وهو لا يداني البحتري في جمال فنه ولطافة تصوره ولا يبز أبا تمام في أستاذية الصياغة وفحولة الصنعة ولا يتدفق تدفق المعري، ولا يثب وثبات الشريف. ولكن عقله المكين كالثغر الكبير المتسع تحمل إليه السفائن حمولات

الأفكار من شتى النواحي وهو يستطيع أن يهضمها ويطبعها بطابعه.

وعندما قال الناقد الإنجليزي المشهور "ماتيو أرنولد": "إن الشعر هو نقد الحياة وأحسن الشعر هو الذي يقدم لنا أكمل تفسير للحياة الإنسانية" أثار عليه ذلك زوبعة من النقد. ولكني أرى أن الشعر لكي يكون من الطراز الأسمى، لا يكفي أن يرفه عن النفس أو أن يكون حافلا بالموسيقية مترعاً بالأخيلة، بل يلزم أن يعيننا على تفسير بعض مشكلاتنا الإنسانية ومسائلنا الأخلاقية: ولست أقصد بالأخلاق هنا المعنى الضيق المحدود، وإنما أقصد بها قوة الشعر على أن يرتفع بنا فوق سفاسف الحياة وصغائرها، ويمتاز في هذه الصفة المتنبي وأبو العلاء فهما ملكان يسيطر كل منهما على عالم شاسع من عوالم الروح، وكلاهما منفرد حزين في النهاية ولكن الأول محارب مطبوع على المناجزة

تعود أن يغبر في السرايا ويدخل من قتام في قتام

أما الثاني فيائس مستسلم. والمتنبي أقرب إلى مزاج الرجل السليم. ونظرته في الحياة أساسها الخبرة، بريئة من ثرثرة العلماء المكبين على كتبهم، ومنزهة عن أوهام رجال الفكر

البعيدين عن ميادين العمل. وحياته أشبه برواية لها مواقفها المشهورة. وقد تكفل ديوانه بوصف أحوالها المتقلبة، وأطوارها المتتابعة، من نشأته الغامضة، وما منى به من الفشل الحاطم في مستهل أمره، ثم اتصاله بسيف الدولة وانصرافه عنه إلى مصر، وقفوله منها مغاضبا لكافور، إلى مصرعه الأخير.

ولكن هناك جانباً هاماً من جوانب الحياة العربية أهمل المتنبي التعبير عنه والإلمام به. ولم يكن له فيه موهبة تذكر وهو الجانب الديني في الحياة العربية. ولو فني الشعر العربي أجمعه ولم يبق سوى ديوان المتنبي لما استطعنا أن نعلم منها شيئاً يؤبه له عن العاطفة الدينية عند العرب. ولا نكران في أن أكثر شعراء العرب لم يعنوا بإثبات خواطرهم الدينية إلا في الندرة والفرط، ووقفوا من الدين موقفا محايداً. ولكن الذي يسترعي النظر في شعر المتنبي، أن فيه إشارات كثيرة تختلف وضوحاً وخفاء تنم على وهن العقيدة وضعف الإيمان وغلبة الآداب الجاهلية في نفسه على الآداب الإسلامية. وقد لمح ذلك القدماء من النقاد فأشار إليه الجرجاني في الوساطة والثعالبي في اليتيمة وتناوله من الكتاب المحدثين الأستاذ العقاد والأستاذ شفيق جبري والأستاذ محمد كمال حلمي. ومن عجيب الاتفاق أن هذه الصفة يشترك فيها المتنبي مع

شكسبير.. وقد كانت العاطفة الدينية عند المتنبي ضعيفة في جميع أدوار حياته. ففي ريق شبابه واكتمال قوته قال:

أي محـــــل أرتقـــــي أي عظـــــيم أتقـــــي

وكـل مـا قـد خلـق الـل ه ومـــــا لم يخلـــــق

محتقـــــر في همـــــتي كشـــــعرة في مفرقـــــي

وفي هـذه الأبيـات يمتـزج الطمـوح المتطـرف وفـرط الثقـة بـالنفس باحتقـار الخليقـة بأسـرها وهـي تـروى عـن شـعور رجـل أجال بصره فلم ير شيئاً جديراً بإجلاله خليقاً بآماله وطمحات نفسه وفي مدحه لبدر بن عمار يقول:

تتقاصـــــر الأفهـــــام عـــــن إدراكـــــه

مثـــل الـــذي الأفـــلاك فيـــه والـــدنى

وهو هنا يرتفع بممدوحه إلى مرتبة الألوهية ولو كان لها مكانة من نفسه لما هبط بها هذا الهبوط ويقول فيه أيضاً

لـــو كـــان علمـــك بالإلـــه مقســـما

في النـــاس مـــا بعـــث الإلـــه رســـولا

لـــو كـــان لفظـــك فـــيهم مـــا أنـــزل ال

فرقـــــــان والتـــــــوراة والإنجـــــــيلا

وفيه فضلا عن المبالغة اقتحام للكتب المقدسة في مجال كان يجمل به أن ينزهها عنه ويقول في الغزل:

يترشفن من فمي رشفات هـن فيـه حـلاوة التوحيـد

ولا يتورع عن تشبيه نفسه بالأنبياء في قوله:

ما مقامي بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود

أنـا في أمـة تـداركها الـل ه غريب كصالح في ثمود

ويتناول معجزات الأنبياء بالتهوين والانتقاص فيقول:

لـــو كـــان صـــادف رأس عـــازر ســـيفه

في يـــوم معركـــة لأعيـــا عيســـى

أو كـــان لج البحـــر مثـــل يمينـــه

مـــا انشـــق حتـــى جـــاز فيـــه موســـى

وفي مدحه لأحد العلويين لا يستكثر أن يقول:

وأبهـــــر آيـــــات التهـــــامي أنـــــه

أبـــوك واجـــدي مـــا لكـــم مـــن مناســـب

ويخاطر في مدحه لسيف الدولة بمثل هذا القسم:

إن كـــان مثلـــك كـــان أو هـــو كـــائن

فبرئـــــت حينئـــــذ مـــــن الإســـــلام

وفي مدحه لابن العميد وكان في نظر المتنبي "فلسفياً رأيه فارسية أعياده" يقول:

لنـــا مـــذهب العبـــاد في تـــرك غـــيره

وإتيانـــه نبغـــي الرغائـــب بالزهـــد

رجونـــا الـــذي يرجـــون في كـــل جنـــة

بارجـــان حتـــى مـــا يئســـنا مـــن الخلـــد

فأصحاب العقيدة في رأيه هم العباد وهو يختلف عنهم بطبيعة الحال ولا يشبههم إلا في قصده لابن العميد كما يقصدون هم الجنة، وهي مشابهة لا تقر بها عين الدين. وقد سخر من آدم سخرية رقيقة مستساغة على خلاف عادته في التهكم المر والسخرية القارصة وأجراها على لسان حصانه:

يقول بشعب بوان حصاني أعن هذا يسار إلى الطعان

أبوكم آدم سن المعاصي وعلمكم مفارقة الجنان

وفي القصيدة التي نظمها بعد شفائه من الحمى بمصر يقول:

تمتع من رقاد أو سهاد ولا تأمل كرى تحت الرجام

فإن لثالث الحالين معنى سوى معنى انتباهك والمنام

ويقف من مسألة خلود الروح موقف الشك. وهي ركن من أقوى أركان العقيدة الدينية:

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم

إلا على شجب والخلف في الشجب

فقيل تخلص نفس المرء سالمة

وقيل تشرك جسم المرء في العطب

ومن تفكر في الدنيا ومهجته

أقامه الفكر بين العجز والتعب

ولم يكن له من وثاقة الإيمان ومتانة العقيدة ما يمكنه من الاطمئنان إلى رأي، والقطع بأحد المذهبين. على أنه قد

صرح بالرأي المادي تصريحا لا يحتمل تأويلا ولا تمحلا في قوله:

تبخل أيدينا بأرواحنا على زمان هن من كسبه

فهذه الأرواح من جوه وهذه الأجساد من تربه

ومن شك في الخلود فليس عجيباً أن تطالعه صور الفناء من كل ناحية. وفكرة الفناء ماثلة على الدوام له فهو يكثر من ترديدها كقوله:

أبني أبينا نحن أهل منازل أبدا غراب البين فيها ينعق

ولهذه الفكرة نتيجتان مختلفتان: فهي قد تغري الإنسان بالزهادة واطراح اللذة، وقد تسوقه على العكس إلى الانغماس في الملذات حتى يستوفي نصيبه من المتعة، لأنه ما دامت الحياة فانية فلماذا لا نأخذ قسطنا من اللذة؟ وعلى أي أساس نقيم قواعد الأخلاق؟ وفي ظل هذه الفكرة قال المتنبي:

ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها فمفترق جاران دارهما العمر

وقال:

أنعم ولذ فللأمور أواخر أبداً إذا كانت لهن أوائل

وفي سبيل تحقيق أطماعه وبلوغ مآربه لا يرى بأساً في أن يستعين بقوله:

شـــيخ يـــرى الصـــلوات الخمـــس نافلـــة

ويســـــــتبيح دم الحجـــــاج في الحـــــرم

وفي هجائه لكافور يقول:

إلا فتـــــى يـــــورد الهنـــــدي هامتـــــه

كيمـــا تـــزول شـــكوك النـــاس والـــتهم

فإنـــــه حجـــــة يـــــؤذي القلـــــوب بهـــــا

مـــــن دينـــــه الـــــدهر والتعطيـــــل والقـــــدم

ومعروف عن المتنبي أنه لم يكن يصلي ولا يصوم ولا يقرأ القرآن. ومن كان لا يرى في الوجود شيئاً مقدساً فليس عجيباً أن يسيء الظن بالدهر والناس ويغالي في ذم الدنيا فهي في نظره أخون من مومس وأخدع من كفة الحابل. أما أهل عصره فهم في رأيه كما وصفهم:

أذم إلى هـــــــذا الزمـــــــان أهيلـــــــه

فـــــأعلمهم فـــــدم وأحـــــزمهم وغـــــد

وأكـــرمهم كلـــب وأبصـــرهم عـــم

وأســـهدهم فهـــد وأشـــجعهم قـــرد

وهو لا يؤمن بالصداقة فليس للإنسان صديق سوى نفسه

صـــديقك أنـــت لا مـــن قلـــت خلـــي

وإن كثـــر التجمـــل والكـــلام

وقد وردت في مدائحه لسيف الدولة بعض إشارات إلى الدين تقليدية اقتضاها سياق الكلام ولكنها ليست من فيض القلب ولا من نتاج العقيدة مثل قوله:

ولســـت مليكـــا هازمـــاً لـــنظيره

ولكنـــه التوحيـــد للشـــرك هـــازم

ولقد كان عصر المتنبي عصر شك واضطراب استحر فيه النزاع بين الطوائف والمذاهب وضعفت فيه العقيدة وساور الشك النفوس وطغى على العقائد. ولكني أرى أن ضعف عقيدة المتنبي يرجع في الأكثر إلى مزاجه وشخصيته. فقد كان بطبيعته رجلا واقعياً مسرفا في واقعيته لا يعرف مداعبة الأحلام ولا التعلل بالآمال ولا تحلق أوهامه في السحاب ولا تترامى أفكاره إلى عالم مجهول وراء الزمان والمكان ولا

يجري فكره وراء الألفاظ البراقة والصور الخلابة بل يحب أن يستمسك بالأرض يوسعها سيراً وتوثباً وحفراً وتنقيباً. وليس له وراءها مطمع. وكان ينفذ إلى الأفكار الجليلة من خلال هذه الواقعية المحضة. وتلك سمة من سمات كبار الشعراء والفنانين فالفنان الصادق يصل إلى المثالي عن طريق دنيا الحواس لا عن طريق الصور المجردة. وعبقريته المصورة تجلو لنا الحقائق أنصع لونا وأشد في النفوس وقعاً وهذا هو السر في أن حكمة المتنبي المستقطرة من الحياة وتجاربها كالذهب النقي لا تذهب لمعته ولا يغيض رونقه.

وشخصية المتنبي بعيدة عن روح الدين. لأن الدين في أوسع معانيه هو الاعتقاد بقوة علوية فوقنا ولكنها تعمل من أجلنا. والرجل المتدين يلوذ بهذا الاعتقاد ويتقي به قوارع الخطوب وعواصف الحياة. وهو في نظره حقيقة الحقائق وسر الأسرار ومنبع الأمل ومبعث الأخلاق. ويرى في كل مظهر من مظاهر الكون آثارا له ظاهرة وشواهد عليه ناطقة. وقد كان أبو الطيب رجلا كثير الاعتداد بنفسه شديد الاعتماد عليها لا يعرف التواضع. وكان يحس أن فيه من قوة الأسر وصلابة المعجم ما يغنيه عن الاستناد إلى أية قوة أخرى خارجية. انظر مثلا إلى قوله:

إن نيـوب الزمـان تعـرفني أنا الذي طال عجمها عودي

وفي ما قارع الخطوب وما آنســني بالمصــائب الســود

والحياة في نظر المتنبي ليست معبداً مقدساً ولا صومعة ناسك وإنما هي مجال كفاح لا رحمة فيه ولا هدنة. وهو حكيم مجرب ولكنه ليس قديساً. ولقد واجه شرور الحياة ومناكر العيش بلا أمل ولا يقين. وعرف ضعف الإنسان وجهالته وشقاءه ولكنه لم يستطع أن يعتصر هذه الظواهر المؤلمة ليخرج لنا ما فيها من الخير ولم يذهب بنا إلى ما وراءها من نظام ولم تستطع عبقريته أن تنير دواجي الظلام المخيم حول هذه المشكلات. ورغم توقد عاطفته وقوة نفسه لم يستطع أن يبعث فينا شيئاً من الثقة بالنفس الإنسانية والأمل في مصيرها. ففلسفته حزينة مكتئبة وحياته قلقة مضطربة وخاتمته مأساة تستثير الأسف وشخصيته تثير الإعجاب والاحترام أكثر مما تثير الحب والعطف. وخلوه من العاطفة الدينية لا يقدح في شاعريته لأنه لا يشترط أن يكون الفن مظهراً للدين وإنما الفن والدين والأخلاق هي وسائل الوصول إلى عالم القيم الخالدة. وقد آثر المتنبي أن يسلك طريق الفن ولئن كان نصيبه من الدين قليلا فقد عظم نصيبه من الفن.

نفسية المتنبي
تحليل لبعض نواحي حياته

بقلم الأستاذ محمد مظهر سعيد

سيتحدث الشعراء والأدباء عن المتنبي وسيصورونه بما يليق بمكانته العالية في عالم الشعر والأدب وستستهويهم تلك الصورة الخلابة التي يعطيها عن نفسه في متفرق شعره. لأن الرجل تحدث عن نفسه بما لم يتحدث به شاعر آخر. ودفع نفسه بنفسه إلى ذروة الشعر والمجد ومكارم الأخلاق. أليس هو باعترافه أشعر الشعراء:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي

وأسمعت كلماتي من به صمم

***

أنا ترب الندى رب القوافي   وسهام العدى وغيظ الحسود

وهو صاحب الهمة القعساء التي تستخف بكل شيء في الوجود:

تحقـــر عنـــدي همـــتي كـــل مطلـــب

ويقصـــــر في عـــيني المـــدى المتطـــاول

***

وإنـــــي إذا باشـــــرت أمـــــراً أريـــــده

تـــــدانت أقاصـــــيه وهـــــان أشـــــده

وهو الكريم واسع الصدر الحافظ للسر:

كفاني الذم أنني رجل   أكرم مال ملكته الكرم

وهو الشجاع الذي بلغ من شجاعته أن يعدها الناس تهوراً:

ولو برز الزمان إلى شخصاً   لخضب شعر مفرقه حسامي

هذا الرجل الذي يشرف قومه به ويفخر أجداده بانتسابهم إليه:

لا بقـــومي شـــرفت بـــل شـــرفوا بـــي

وبنفســـــي فخـــــرت لا بجـــــدودي

أترى له في الدنيا مثيلاً:

وهكـــذا كنـــت في أهلـــي وفي وطـــني

إن النفـــيس غريـــب حيثمـــا كانـــا

وبالجملة هـذه عقيـدة في نفسـه منـذ أن ادعـى النبـوة في صباه:

بل دعنا من حديث الرجل عن نفسه ولنعرج على الأخلاق الفاضلة التي يقدرها والمثل العالية التي يمجدها. فتراه يمجد القتال من صغره:

لا تحسن الوفرة حتى ترى منشورة الضفرين وقت القتال

فما المجد إلا السيف والفتكة الكبر

ويمدح التواضع والزهد في الدنيا وطلب العلى، ويذم البخل وحرص الناس على الدنيا بأبيات كثيرة أعددناها ولكن يضيق المقام عن ذكرها ترفعه إلى مقام القديسين والمتصوفة الزاهدين. ولكنك أثناء هذا كله تبرز لك من عقله الباطن صورة البخيل الجشع الذي يضع المال فوق كل شيء حتى في التشبيه:

مـــن يطلـــب المجـــد فلـــيكن كعلـــي

يهـــــب الألـــــف وهـــــو يبتســـــم

***

تهلـــــل قبـــــل تســـــليمي عليـــــه

وألقـــــى مالـــــه قبـــــل الوســـــاد

***

إنـــي أنـــا الـــذهب المعـــروف مخـــبره

يزيـــد في الســـبك للـــدينار دينـــارا

ثم انظر إلى هذا الرجل الوقور يتملكه الغضب في الهجو فيفلت لسانه بالقول الذي تصطك منه المسامع في قصيدة "ما أنصف الناس ضبة".

هذا هو الستار الملون البراق الذي يريد أن يستر به المتنبي خلقه ونفسيته، ولكن عين علم النفس تنفذ إلى أعماقه وتكشف عن طبيعته وتصدر فيه حكماً قد يغضب رجال الأدب وقد لا يليق بنا أن نسوقه في ظرف كهذا يعظم فيه المتنبي وتمجد ذكراه. ولكنا نتحدث عن الرجل لا عن الشاعر ولا يعيب الشعر أن يكون ناظمه حقيراً ولا الأدب أن يكون قائله بذيئاً ولا الجمال أن يكون مصوره قبيحاً. فكم مجد الصدق على لسان الشاعر الكذوب وكم مدح الكرم بقلم الأديب البخيل. وتعزيزاً لحكمنا في قضية المتنبي نرجو القارئ

أن يجول معنا جولة قصيرة في حياته. وسنكتفي بالجزء البارز في تاريخ حياته وهو اتصاله بالأمراء والكبراء ومدحه أو ذمه لهم. ولا ينكرن أحد أن شعر المتنبي كان كله شعراً خاصاً ينصب على مدح الناس عند التقرب إليهم ثم ذمهم عند الانصراف عنهم وأن الحكم والأمثال على سموها وجلالها كانت تنساق انسياقاً أثناء هذا الكلام الخاص.

فقد ركب الغرور الرجل منذ نشأته وظهر جلياً في تهوره وادعائه النبوة ولم يكن هذا الفعل طريقاً ميسوراً للمجد. فأراد تحقيق آماله الهوجاء ومطامعه الخيالية عن الطريق الناعم السلس المأمون العاقبة. طريق الاتصال بالأمراء ومدحهم بل والإسراف في مديحهم لينال من مالهم وعطفه بل ربما استوزروه وولوه، فأخذ يتجشم المشاق في أسفار بعيدة أبعد من آماله (كما يقول صاحب اليتيمة) يمدح فيها القريب والغريب ويستعرض الأمراء والحكام ويتخير منهم أكثرهم دسماً وأوفرهم مالاً فيرفعه إلى السماكين. بل إنه لا يتورع فقد يكون الأمير صغير الشأن فيخاطبه بصفات الألوهية (كالمعز المذل).

فيقول في علي بن إبراهيم التنوخي: "مذل الأعزاء المعز".

وفي كافور: "جرى الخلف إلا فيك إنك واحد".

ثم ينهل من الرجل حتى يرتوى فإذا أنس منه شيئاً من الانصراف عنه إلى غيره، وهو يأبى إلا أن يكون المدلل به، انصرف عنه إلى غيره وأخذ يمدحه بمثل ما كان يمدح به الأول، بل إنه ليذم الأمراء السابقين في غير حاجة ويعرض بهم من غير ضرورة. وقد يدعوه بعض الأمراء الصغار وهو في طريقه إلى ملك من الملوك، دعوة مخلصة صادقة فيترفع عنهم ولا يتنازل بالرد عليهم كما فعل مع الوزير المهلبي والصاحب أبي القاسم وهو في طريقه إلى عضد الدولة وقد قيل إن الثاني كتب إليه يلاطفه ويضمن له مشاطرته جميع ماله، ولكنه لم يكن قد استوزر بعد فلم يقم له وزناً ولم يجبه على كتابه. وهكذا عاش الرجل أفاقاً مداحاً متكسباً بالشعر على أسوأ ما يكون التكسب مناقضاً بفعله كل ما سطره بقلمه أو أنشده بلسانه. ولم يكن لخلقه نصيب كبير في الفضائل التي كان يمجدها ويتغنى بها في نفسه وفي غيره. ولنكتف بأبرز حوادثه التي تبين لنا مبلغ هذا التقلب في طبيعته حتى لا يطول بنا البحث.

فقد مدح سيف الدولة بعشرات من قصائده، لا يترك فيها صفة طيبة ولا خلة حميدة إلا نسبها إليه حتى ليخيل إليك أن الرجل سيجعل حياته وقفاً على مديحه، ولكنه سرعان ما يتصل بكافور في مصر ثم يتركه إلى عضد الدولة وغيره وغيره. وتؤخذ عليه في حياته المتقلبة هذه مآخذ قوية أهمها:

(1) إيهام كل أمير بأنه انجذب إليه عن رغبة صادقة وأنه سيقصر مدحه عليه فيقول لحسين بن عبيد الله:

لا يجذبن ركابي نحوه أحد
ما دمت حياً وما قلقلن كيرانا

ولكافور: قواصد كافور توارك غيره
ومن قصد البحر استقل السواقيا

(2) قصره الفضل كله على من يمدحه دون سائر الناس كأن الفضائل كلها قد جمعت فيه. فهو يقول في كافور:

وقد جمع الرحمن فيك المعانيا

بل إنه ليقلب نقصه كما لا فيقول في سواد لونه ما يجعله من الملوك بمنزلة سواد العين وهم بياضها:

فجاءت بنا إنسان عين زمانه وخلت بياضاً خلفها ومآقيا

(3) ذم الأمير بما كان يمدحه به سابقاً فقد اتخذ سواد كافور مادة لهجوه وعيره بالبخل بعد أن كان الكرم وقفاً عليه وعير أهل مصر به بعد أن كان عبداً له فيقول في سواده:

وإنك لن تدري ألونك أسود

من الجهل أم قد صار أبيض صافيا

بل إنه ليجعل وجود كافور في الدنيا سلطاناً للمسلمين دليلاً على التشكك في وجود الخالق:

إلا فتى يورد الهندي هامته

كيما تزول شكوك الناس والتهم

كل هذا لأن كافوراً منحه كل شيء وقربه إليه ولكنه طمع في الولاية فلم يعطها إياه. وقد نقبل هجاءه كافوراً في خلقه بحجة أنه تبين سوء رأيه فيه وندم، ولكنا لا نقبل تعبيره بسواده وسوء خلقته وهو يعلم ذلك قبل أن يقدم عليه. ولكن ماذا نقول في الرجل وهو لا يقيم إلا حيث يجد المرعى والمنفعة المادية.

(4) ثم انظر إليه وهو يذم سيف الدولة في حضرة كافور أو على الأقل وقد مدحه له:

رأيـــتكم لا يصـــون العـــرض جـــاركم

ولا يـــــدر علـــــى مرعـــــاكم اللـــــبن

جـــزاء كـــل قريـــب مـــنكم ملـــل

وحـــظ كـــل محـــب مـــنكم ضـــغن

وإن بليـــــت بـــــود مثـــــل ودكـــــم

فـــــإنني بفـــــراق مثلـــــه قمـــــن

عنـــد الهمـــام أبـــي المســـك الـــذي غرقـــت

في جـــوده مضـــر الحمـــراء والـــيمن

أي عند كافور الذي جرده من الفضل فيما بعد. وما كان أحراه ألا يتنكّب هذا الطريق ويذم أمير الجود في مدح شر العبيد!

(5) وما أشد تحايله عندما يحاول أن يبرر للأمير اللاحق شرحه مديحه للأمير السابق حتى لا تأخذه الغيرة فيقول عن كافور أنه لم يكن جاداً في مديحه:

ومثلـــك يـــؤتى مـــن بـــلاد بعيـــدة

ليضـــحك ربـــات الحـــداد البواكيـــا

ثم يقول لعلي بن إبراهيم التنوخي:

أشرت أبا الحسين بمدح قوم نزلت بهم فسرت بغير زاد

وظنـــوني مـــدحتهم قـــديماً وأنت بما مدحتهم مرادي

وهذا في الحق تخلص غريب لأنه يقول المدح لإنسان ويعني به آخر. ثم هو في حضرة أبي شجاع فاتك يتوب عن مدح كافور ويقرع نفسه عليه:

وشعر مدحت به الكرك دن بين القريض وبين الرقى

فما كان ذلك مدحاً له ولكن كان هجو الورى

كأنه كان في الواقع لا يمدح كافوراً ليسره وإنما ليغيظ الناس الذين ملكوا عليهم عبداً وهذا تحايل غريب!

هذه إلمامة بسيطة بناحية من نواحي خلق المتنبي، ولعلنا لا نكون قد أسرفنا في النقد. وعلى كل فنفسيته شيء وشعره وأدبه شيء آخر.

الغموض في شعر المتنبي
هل كان المتنبي يتعمّده

أعجز المتنبي كثيراً من البلغاء ببلاغته، وتفوق على جميع شعراء عصره، وفرض على الأيام خلود شعره، ولكن بالرغم من هذا الإعجاز الذي اشتهر به جاءت بعض أبياته غامضة مبهمة. فهل كان الشاعر يتعمد الغموض والإبهام؟ وما السر في هذا الشذوذ الذي يتخلل أبياته الخالدة؟ ذلك ما يدور حوله البحث بين الأستاذين عبد الرحمن البرقوقي، ونقولا الحداد. وقد ذهب كل منهما مذهباً في هذا الموضوع.

رأي الأستاذ البرقوقي

".. إذا عرفت هذا وتفطنت إليه تبين لك أن ليس هناك ما يصحّ أن يسمى تعمداً للغموض. وإنما هو الاحتفال والاحتشاد واستنباط العزيمة لحوافز نفسية وانفعالات طارئة وظروف عارضة..".

ليس يخلو شاعر من الشعراء ولا كاتب من الكتاب، ولا سيما النوابغ الفحول، من غموض. بيد أن المتنبي كما أنه فاق شعراء عصره في الجزالة والإفصاح والتبيين، فافهم في

الغموض والإغراب والتعقيد ، فغموض المتنبي يبذ غموض سائر الشعراء كماً وكيفاً كما يقولون، أي أن الغموض في شعره كثير، وعلى كثرته تراه أمعن في الغموض من غيره. فهو نابغة في الغموض كما أنه نابغة في الإبانة والإفصاح.

وللغموض ألوان ومظاهر شتى، فغموض في الألفاظ وغموض في المعاني. وغموض الألفاظ إما لأن مفرداتها غريبة وحشية ممعنة في الغموض بحيث لا يكاد يعرفها العلماء المبرزون مثل قول المتنبي:

وما أرضى لمقلته بحلم إذا انتبهت توهمه ابتشاكا

والابتشاك الكذب.... وقوله أيضاً:

جفخت وهم لا يجفخون بها بهم

شيم على الحسب الأغر دلائل

فإن لفظة جفخ غريبة وحشية فضلاً عن أنها غليظة مرة الطعم، وكان للمتنبي منتدح عنها بأن يستعمل عوضها كلمة فخرت التي هي بمعناها ، ولكن ما الحيلة في تنطس الشعراء...

ومن هذا الباب ولوع المتنبي باللغات الشاذة أو الضعيفة أو المختلف فيها مثل استعماله لفظة السم بدل الاسم في قوله:

أشاروا بتسليم فجدها بأنفس تسيل من الآماق والسم أدمع

والبيت رائع بديع.. وكذلك ولوعة بالتلاعب بالألفاظ، وتلمس المناسبات بينها ليظفر بما يسمونه التجنيس أو مراعاة النظير أو ما إليهما من أنواع البديع... وهو كثير في شعر المتنبي.. وقد يكون غموض الألفاظ لما يسمونه المعاظلة أو التعقيد اللفظي كقول المتنبي:

ولذا اسم أغطية العيون جفونها

بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه

وقوله:

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه

بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه

أما الغموض في المعاني فإن ألوانه هو الآخر كثيرة، وقد يكون من استعمال لفظ مشترك، ومن وقوع كناية بعيدة أو استعارة خفية أو إيجاز مخل إلى أمثال ذلك مما استقصاه علماء البيان. وقد أرجع بعض النقدة من المتقدمين أسباب

الغموض في المنظوم والمنثور إلى ثلاثة أشياء. التغيير عن الأغلب كالتقديم والتأخير وما أشبههما، وسلوك الطريق الأبعد، وإيقاع المشترك.

وهناك ألوان من الغموض تعد من محاسن الشعر وتدل على براعة الشاعر وحسن تأتيه، ولكنها غموض على أية حال. وذلك مثل مما يسمونه الموجه وهو أن يحتمل الكلام معنيين غيرين ضدين وغير ضدين، فالضدان كقول أبي الطيب يمدح كافوراً:

وأظلم أهل الظلم من بات حاسداً

لمن بات في نعمائه يتقلب

فإن هذا البيت يستخرج منه معنيان ضدان، أحدهما أن المنعم عليه يحسد المنعم، والآخر أن المنعم يحسد المنعم عليه. وكذلك قوله من قصيدة يمدحه:

فإن نلت ما أملت منك فربما شربت بماء يعز الطير ورده

فإن هذا البيت يحتمل مدحاً وذماً. وإذا أخذ بمفرده من غير نظر إلى ما قبله، فإنه يكون بالذم أولى منه بالمدح، لأنه يتضمن وصف نواله بالبعد والشذوذ، وصدر البيت مفتتح بأن

الشرطية، وقد أجيب بلفظ رب التي معناها التقليل، أي لست من نوالك على يقين فإن نلته فربما وصلت إلى مورد لا يصل إليه الطير لبعده. وإذا نظر إلى ما قبل هذا البيت دل على المدح خاصة لارتباطه بالمعنى الذي قبله. وكثير ما كان يعمد المتنبي إلى هذا النوع في شعره، وأكثر ما كان ذلك في قصائده الكافوريات.. وحكى ابن جني قال:

قرأت على أبي الطيب ديوانه إلى أن وصلت إلى قصيدته التي أولها:

"أغالب فيك الشوق والشوق أغلب"

فأتيت منها على هذا البيت:

وما طربى لما رأيتك بدعة

لقد كنت أرجو أن أراك فأطرب

فقلت يا أبا الطيب: لم تزد على أن جعلته أبا زنة أي قرداً فضحك لقولي.. أما غير الضدين فكقول المتنبي من قصيدته في عضد الدولة:

لو قطنت خيله لنائله لم يرضها أن تراه يرضاها

فإنه يستنبط منه معنيان غير أن: أحدهما أن خيله لو علمت مقدار عطاياه النفيسة لما رضيت له بأن تكون من جملة عطاياه لأن عطاياه أنفس منها. والثاني أن خيله لو علمت أنه يهبها من جملة عطاياه لما رضيت ذلك إذ تكره خروجها عن ملكه.. وهذا النوع المسمى الموجه تراه كثيراً في شعر الفحول المتقدمين منهم والمتأخرين. فمن ذلك باب الكناية وهو باب واسع في العربية حتى أفرد له المتقدمون الكتب والأسفار. وبحسبك كتاب الكنايات للثعالبي. ومن ذلك المغالطات المعنوية وهي بسبيل من التجنيس وليست به، وذلك أن يذكر معنى من المعاني له مثل في شيء آخر أو نقيض والنقيض أحسن موقعاً وألطف مأخذاً، وذلك مثل قول المتنبي:

يشلهمُ بكل أقب نهد لفارسه على الخيل الخيار

وكل أصم يعسل جانباه على الكعبين منه دم ممار

يغادر كل ملتفت إليه ولبته لثعلبه وجار

فالثعلب هو هذا الحيوان المعروف والوجار اسم بيته والثعلب أيضاً هو طرف سنان الرمح فلما اتفق الاسمان بين الثعلبين حسن ذكر الوجار في طرف السنان. وهذا نقل المعنى من مثل إلى مثله.

أسباب الغموض في شعر المتنبي

أما بعد فلك أن تقول بعد هذا التمهيد إن هناك ألواناً من الغموض تعد من محاسن الكلام. فليس يعاب بها الشاعر إذ هي من بنية الشعر العربي ومقوماته. وأظن أنه لا يخلو منها منظوم في أي لغة من اللغات، بلى ولا يخلو منها منثور. وعدنا إياها من ألوان الغموض إنما هو تجوز وتوسع وإلا فهي كما قلنا من محسنات الكلام ودلائل على براعة الشاعر وصدقه، والجهل بدقائقها جهل بالشعر ومآزقه الضنكة المتلاحمة. على أن المتنبي وإن كان في حقيقته مطبوعاً إلا أنه كسائر الشعراء الفحول يضطر إلى الصنعة في بعض الأحيان شأن الفنانين في كل فن وحرفة، فليس يؤاخذ الفنان بذلك ولا هو مما يغتمز فيه، اللهم إلا في الندرة وحين يجعل الصنعة وكده وديدنه. أما الغموض الحقيقي الذي أوردنا من ألوانه وأمثلته ما أوردنا فلك أن تقول إن المتفقد لشعر المتنبي المتتبع لظروفه وملابساته يتجلى له أن هذا اللون من الغموض كان يعرو

شعره في حالات تكاد تشفع له، فإنك ترى هذا الغموض أكثر ما يكون في صباه وأوائل شعره. ويظهر أن مثله الأعلى في أول أمره كان شعراء الصنعة أمثال مسلم بن الوليد وأبي تمام، فكان يقفو أثرهما ويحتذى على طريقتهما فيحتفل ويتنطس فيغمض.

وكذلك تراه يحتشد ويبلغ أقصى مجهوده إذا هو مدح مثل ابن العميد وهو من هو أدباً وفضلاً وجهبذة وأستاذية حتى أن له على المتنبي مآخذ. وكذلك إذا هو مدح سيف الدولة لأول اتصاله به والشعراء متوافرون على بابه وسيف الدولة نفسه من الأدب والشعر بمكان. وتراه كذلك إذا هو رجز قال رجزاً ان يحاول أن يطول رؤبة والعجاج ويغبر في وجوههما. فتأتى أراجيزه حافلة بكل غريب غليظ ممعن في اليعربية. هذا ومما يجمل أن يلحظ هنا أن عصر المتنبي كان شأن اللغة فيه غير شأنها اليوم وأن البيئة التي نشأ في أحضانها أدباء ذلك العصر هي غير بيئتنا. وهذا أبو الطيب تراه نشأ في البادية وتلقى اللغة من الأعراب الخلص، ثم ظهر في بيئة هي الكوفة غاصة بالرواة وعلماء اللغة وأساطين البيان، وهو رجل بطبيعته طموح بعيد مرتقى الهمة، أفتراه ونشأته هذه النشأة وبيئته هذه البيئة وطموحه هذا الطموح لا يحتفل في شعره كل الاحتفال ويأتي

بالغريب الوحشي وبالتراكيب الغريبة في بعض الأوقات وبالمعاني الدقاق والتوليد العجيب الدقيق؟

وإذا ما عرفت هذا وتفطنت إليه تبين لك أن ليس هناك ما يصح أن يسمى تعمداً للغموض. وإنما هو الاحتفال والاحتشاد واستنباط القريحة لحوافز نفسية وانفعالات طارئة، وظروف واعتبارات عارضة. وإنما هو الطراز الأول من الشعر تظاهر على إنتاجه عصر غير عصرنا ولغة تكاد تتناكر مع لغتنا كما تتناكر لغة شكسبير مع لغة هذا الجيل من الإنجليز لا يدرك دقائقها إلا الأفراد أوتوا من الوقت والاستعداد ما يجلدهم على معاناتها، ودراسة آدابها وآلاتها. وإنما هو المثل الأعلى من المعاني الدقاق لا يلهمه إلا مثل المتنبي في شاعريته وعبقريته وتوليده العجيب. ذلك التوليد الذي هو سر من أسرار شاعريته.

رأي الأستاذ نقولا الحداد

".. كان يعتمد في قدرته في التخيل لا على وحي ربة الشعر فجاء شعره مجرد إغراق في الخيال، وغلو في التصور الأمر الذي اقتضى أن يعجز عن إبراز الصورة التي تمثلت في ذهنه، فرقع الثوب ترقيعاً للمعنى الذي أراد فقبح الثوب، وانطمس المعنى..".

لا جدال في أن المتنبي أحد كبار الشعراء المعدودين، وقد لا يعذل من يعده أعلاهم كعباً. ويمتاز شعره بما فيه من سمو الخيال الذي لا يكاد يطاول، وابتكار المعاني التي ترى كأنها مختلقة من العدم، واختراع الصور الفنية التي تهتز لها النفس إعجاباً، والإبداع في إبراز المعاني التجريدية في ذاتيات حسية، إلى غير ذلك من المزايا التي تدل على ذكاء باهر وفكر ثاقب، بحيث يظن أنه لو صرفه القدر إلى التفكير العلمي أو الفلسفي لأصاب منه منزلة في عصره مثلما أصاب من المنزلة في الشعر، لذلك خلد شعره وسيبقى خالداً. وإلى الآن لم يفقه شعر في أسلوب الشعر القديم، وإن كان في

أسلوب الشعر العصري المضارع له في المنزلة ما يستحب أكثر منه لأنه أقرب فناً إلى القلب.

ولو عاش المتنبي في هذا العصر في بيئة المدنية الحاضرة وتحلى عقله بمعارفها العامة لبرز بلا شك في الشعر العصري وكان شعره فنياً أكثر منه في ديوانه. أقول هذا لأن العصر الطويل الذي نشط فيه الشعر العربي وكان نصيب المتنبي أن يعيش في رده منه كانت مناهج الشعر فيه تبعده عن روح الفن التي نعنيها في هذا العصر والتي نحسبها ينبوع الجمال، فإن معظم مواضع شعره مدح الملوك وتمجيد كرمهم وسؤددهم وبلائهم في الحروب وما إلى هذا مما يقتضى التفنن في تصوير الطعن والضرب والفتك والدم والنقع والإذلال والأسر وما يستلزمه من ذكر الجيوش والخيل والنياق والفلوات والبوادي، إلى آخر ما هنالك من ظاهرات الهمجية والإغضاء من نعماء المدنية ومحاسنها وما فيها من جمال وفن جميل. وإذا اعتبرنا الشعر فناً جميلاً أو هو في مقدمة الفنون الجميلة فإجادة المتنبي في الإبداع والابتكار في تلك المواضيع يعد معجزة. ولكن مهما بلغت الإجادة من السمو بقي الفن الجميل ضئيلاً فيها.

لذلك لا يستطيع المتنبي ولا غيره من منافسيه في هذا المنهج المجافي للفن الجميل إلا أن يتعمل الإبداع الشعري تعملاً ويعنت الذهن فيه إعناتاً. ولا يستطيع أن يستلهم الروح والقلب في تصوير الجمال وإبراز الصور العقلية الجميلة، ولا أن يلجأ في هذا الاستلهام إلى الطبيعة أم الجمال ومصدر الوحي الفني. فتوفق المتنبي إلى الإبداع العجيب والابتكار الغريب بالرغم من بعده عن دار الفن يعد، وايم الحق، معجزة.

ومنهج المتنبي هذا في شعره كان يقضي عليه أن يقول غير ما يعتقد، ويصور غير ما يحس. ويحبب بغير ما يحب. ويجمل غير ما يستحسن. فكيف يستطيع أن يكون فناناً بحتاً إذا كان يمتدح ممدوحاً لا محمدة له في يقينه، إلا العطاء، أو إذا كان ينعته بشرف ولا شرف له في رأيه إلا بتقريبه إليه؟ وكيف يمكن أن يكون شعره من قلبه إذا كان يقول لكافور الزنجي مثلاً حين يمدحه:

أنت الحبيب ولكني أعوذ به من أن أكون حبيباً غير محبوب

ثم متى انقلب إلى هجوه يقول. وقد نظر إلى شقوق في رجليه:

وتعجـــبني رجـــلاك في النعـــل إنـــني

رأيتـــك ذا نعـــل إذا كنـــت حافيـــا

فشاعر كالمتنبي يندر أن يشعر بما يشعر به أو أنه يشعر بما لا يشعر به. ولا يستطيع أن يبدع في هذه الحال إلا إذا استكد ذهنه في اختلاق الصور الشعرية لذلك كان يعتمد على قدرته النادرة في التخيل لا على وحي ربة الشعر الجميل. فجاء شعره مجرد إغراق في الخيال وغلو في التصوير، الأمر الذي اقتضى في كثير في المواقف أن يعجز عن إبراز الصورة التي تمثلت في ذهنه لأنه لم يجد في اللفظ بدناً كاملاً لها، ولا في سعة العروض كساء واسعاً تحتويه. فرقع الثوب ترقيعاً ضيقاً للمعنى الذي أراد، فقبح الثوب وانطمس المعنى.

هذا هو سر الإبهام في كثير من أبياته.

لذلك لا تفهم شعر المتنبي بلا شرح. ومتى فهمته من الشرح رأيت أن صيغة الشرح لبعض الأبيات تختلف عن صيغة النظم. وتلحظ أن الشرح المنثور أليق للمعنى من الشعر المنظوم. وفي كثير من الأبيات المبهمة لا تدرك المقصود حتى بعد تفسير الألفاظ. وحتى حيث أردف الشارح تفسيرها بشرح المراد من البيت يبقى المعنى غامضاً أو غير ذي شأن. ولذلك ترى أن

الشارح لم يحصل المعنى إلا بالاعتماد على مختلف القرائن. ولهذا اختلف الشراح في تفسير كثير من الأبيات لشدة إبهامها وغموضها. وربما فسروا بيتاً بمعنى لم يرده المتنبي وبقي مراده الذي جال في ذهنه دفيناً معه.

ومن أمثلة ذلك قوله:

جلا كما بي فليك التبريح

أغذاء ذا الرشأ الأغن الشيح

ومعنى الشطر الأول واضح. وهو فليكن التبريح في الهوى جلاً كما هو بي، وتقديم المتأخر فيه من ضروب البلاغة. ولكن الشطر الثاني يقتضي تأويله إعنات فكر، لأن الصلة اللفظية بينه وبين الصدر مفقودة بتاتاً إذا صح تفسيره هكذا: أتظنون أن غذاء هذا الرشأ كعادة مثله من غزلان الصحراء؟ لا. بل إن غذاءه من قلب عاشقه ولهذا ينحله ويمرضه. فهو الذي يورثه هذا التبريح. فانظر كم اقتضت الصلة بين الصدر والعجز من الكلام الذي استقام به المعنى وليس في البيت منه شيء، ومثله قوله:

وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه

بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه

قال اليازجي في تفسيره: وفاؤكما مبتدأ خبره كالربيع. وأشجاه تفضيل من شجاه الأمر إذا أحزنه، وطاسمه دارسه، والجملة حال من الربيع. وتسعدا بمعنى تساعدا والباء متعلقة بوفاء. وهو من الضرورات القبيحة لأن الاسم لا يخبر عنه إلا بعد تمامه. وساجمه ساكبه.

فليتأمل القارئ هذا البيت بعد ما تقدم من تفسير ألفاظه وتركيبه. وليرى ماذا يستطيع أن يحصل منه؟ وهل يستطيع أن يحصل بسهولة هذا المعنى الذي حصله الشارح وهو: "يخاطب صاحبيه اللذين عاهداه على مساعدته بالبكاء عند ربع الأحبة. يقول: وفاؤكما بمساعدتي كهذا الربع، فإن الربع كلما درس كان ادعى إلى الحزن. وكذلك وفاؤكما كلما ضعف وقلت مساعدتكما لي بالبكاء اشتد حزني لفقد من أتأسى به. وقوله: والدمع أشفاه ساجمه. بيان لعذره في البكاء وحجة على صاحبيه بأنهما خاليان عما هو فيه من الحزن. فهل يمكن أن هذه المعاني المتسلسلة تسلسل العلل والمعلولات أن تدمج في تسع كلمات، وبعد هذا الشرح الطويل أين تجد الفن الشعري في هذه المعاني؟ أو أين الصورة ؟؟؟ التي يعرضها المتنبي في هذا البيت؟

وفي نفس القصيدة:

قفـــي تغـــرم الأولى مـــن اللحـــظ مهجـــتي

بثانيـــــة والمتلـــــف الشـــــيء غارمـــــه

يعني أنه نظر إليها نظرة أتلفت مهجته، فيقول لها قفي لأنظرك مرة ثانية ترد مهجتي وتحييها فإن فعلت كانت النظرة الثانية غرماً لما أتلفنه الأولى. فانظر هل يبدو هذا المعنى إلى الذهن من مجرد الاطلاع على البيت؟

وكذلك قوله في وصف جنود سيف الدولة:

تحمل أغمادها الفداء لهم فانتقدوا الضرب كالأخاديد

قال الشارح: إغمادها أي إغماد سيوفها فحذف المضاف وانتقد الدراهم قبضها. والأخاديد جمع أخدود وهو الشق المستطيل في الأرض. والظرف حال من الضرب. فانظر الصورة التي رسمها المتنبي في هذا البيت. هل هي في ظاهر اللوحة أم هي مخبأة في باطنها. فهو يعني أنهم حملوا إلى الأعداء السيوف في الأغماد وجعلوها فداء لأبي وائل لأنهم استنقذوه بها. ولما جعل السيوف فداء جعل الضرب بها مقبوضاً كما تقبض الأموال التي تدفع عادة في الفداء. أي فنالتهم بها جراح واسعة

كالأخاديد. وأي صورة تقوم في ذهنك من تشبيه الضرب بالسيوف في أبدان الأعداء بالنقود التي تقبض فدية؟ ما أغمض وجه الشبه هنا!

ومن أمثلة الغموض التي يختلف في تأويل المراد منها قوله:

ضروب وما بين الحسامين ضيق

بصير وما بين الشجاعين مظلم

أي أنه حاذق بأمر الحرب يضرب قرنه وقد اشتد الزحام حوله حتى لا يجد السيف مساغاً ولا يخطئ مقتله. وقد أظلم الجو بينهما من شدة الغبار حتى لا يبصر القرن قرنه. فتأمل ما بين المعنى واللفظ من تباعد الدلالة!

وكذلك قوله:

عجب الوشاة من اللحاة وقولهم

دع ما نراك ضعفت عن إخفائه

أي أن اللحاة (اللوام) يقولون له: دع هذا الحب الذي لا تطيق كتمانه، فيعجب الوشاة من قولهم هذا لأنه إذا غلب عليه الحب حتى يعجز عن كتمانه فهو عن تركه أعجز. والإبهام هنا في عجب الوشاة الذي لا يظهر له سبب في البيت.

ولذلك يضطر الشارح أن يتفلسف في سببه الذي ليس له في البيت لفظ يدل عليه، وإنما تؤخذ الدلالة من تقاليد العرب في الحب ومنها أن العاشق يكتم عشقه.

يكفي ما تقدم من نماذج الإبهام في شعر المتنبي، وفيها الدلالة الكافية على أنه بعيد الغور في التصور والتخيل وابتداع المعاني ولكنه كان في كثير من الأحوال يعجز عن أن يصوغ تمثالاً كاملاً للمعنى الذي يبتدعه بحكم العروض عليه وزناً وقافية. فيضطر إلى إغفال شيء من اللفظ اللازم قالب المعنى، وإلى التقديم والتأخير إلى حد الإخلال بقوانين البلاغة وقواعد اللغة أحياناً مع عبقريته في تسويغ هذا الإخلال. ومن أمثلة هذا ارتكابه "لغة يتعاقبون" أي وضميره معاً بعد الفعل كقوله:

ورمى وما رمتا يداه فصابني سهم يعب والسهام تريح

فضمير المثنى في رما فضلة منكرة قبل ذكر الفاعل "يداه" ومثله في نفس القصيدة:

نفديك من سيل إذا سئل الندى

هول إذا اختلطا دم ومسيح

.... الأخيرة في اختلطا فضلة مع الفاعلين المتعاطفين.
ناهيك عن اعتراض الشرط بين ..... سيل هول

هذا القبيل فك الإدغام في قوله:

ولا يـــبرم الأمـــر الـــذي هـــو حالـــل

ولا يحلـــل الأمـــر الـــذي هـــو مـــبرم

فهو مستقبح وإن جاز لضرورة الوزن. وله كثير من أمثال هذه المتجوزات المكروهة. ولا يندر أن يضحى بصحة التعبير اللغوي انقياداً لضرورة الوزن كقوله:

حتـــى وصـــلت بـــنفس مـــات أكثرهـــا

وليـــتني عشـــت منهـــا بالـــذي فضـــلا

المعنى الواضح أن يقول: وليتني أعيش

وهناك كثير من الأبيات التي يشذ فيها عن أصول الفصاحة والبلاغة ويرتكب فيها التقديم والتأخير والحذف إلخ حيث لا تجوز هذه المذكورات فيظهر البيت بها كركام بناء متهدم وقد تراكمت بعض أجزائه على بعض. كقوله:

فتى ألف جزء رأيه في زمان أقل جزئ بعضه الرأي أجمع

"في هذا البيت من التقديم والتأخير والحذف والإبهام ما لا يباح في أساليب الكلام فإذا حللت تركيبه النحوي وجدته باقياً على غموضه.. وجل ما يتحصل منه أن ممدوحه فتى لو اعتبر رأيه في أحوال زمانه ألف جزء لكان أقل جزء منها يعادل كل ما عند الناس من الرأي".

أن الممدوح أعلم الناس بأحوال الدهر، فترى أن هذا المعنى تافه لا يستحق هذه الحذلقة في النظم.

حلق في فضاء التخيل والتصوير يترك وراءه حسن الذوق فيرد في نظمه في السماجة في لطف الخيال، ومن خساسة الاستعارة والتشبيه ما يقابح سمو التصور كقوله في قصيدته المشهورة: "من الجآذر في زي الأعاريب؟".

لا تجزني بضنى بي بعدها بقر

تجزي دموعي مسكوباً بمسكوب

جمع جؤذر وهو ولد البقر الوحشية تشبه بها النساء لحسن عيونها. وهو وجه الشبه الوحيد بين الطرفين وفيما سواه بينهما تباين عظيم كما هو معلوم. ولا يخفى ما في ذكر البقر في صدر البيت من فساد الذوق. وما اكتفى بذلك بل ضرب على نفس النغمة في بيتين آخرين في نفس القصيدة أحدهما:

قــد وافقــوا الــوحش في ســكنى مراتعهــا

وخالفوهـــــــا بتقـــــــويض وتطنيـــــــب

ولما أراد أن يرفع من شأن الآرام التي تشبه بها الحسان لجمال عيونها قابلها بالمعيز في البيت الآخر:

أيـــــن المعيـــــز مـــــن الآرام نـــــاظرة

وغـــــير نـــــاظرة في الحســـــن والطيـــــب

وهو يشبه نساء الحضر بالمعيز ونساء البدو بالآرام. ولا أدري إن كان أحد من الناس يحبذ هذا الذوق!

ومن هذا القبيل قوله:

وأشرف من عيشهم موته وأنفع من وجدهم عدمه

يريد أن موت ممدوحه أشرف من حياتهم (أي الملوك الذين يفاضله عليهم) فأي ذوق هذا في أن يجعل موت ممدوحه وفقره موضوعاً للمفاضلة؟

نكتفي بما تقدم ونرشد القارئ إلى تذييل الشيخ إبراهيم اليازجي لشرح أبيه الشيخ ناصيف لديوان المتنبي. وهو شرح

ممتع قيم وقد أورد في هذا التذييل طائفة من الأبيات المبهمة التي اختلف الشراح في شرحها وحل رموزها.

❖ قيل للمتنبي: "على من تنبأت؟" قال: "على الشعراء" فقيل له: لكل نبي معجزة، فما هي معجزتك؟". قال معجزتي هذا البيت:

ومن نكد الدنيا على المرء أن يرى

عدواً له ما من صداقته بد

❖ وصحب المتنبي سيف الدولة في غزوة العثاء التي لم ينج منها إلا سيف الدولة وستة معه أحدهم المتنبي، وأخذت الروم عليهم الطريق، فجرد سيف الدولة سيفه وحمل على العسكر وفرق الصفوف. وبينما المتنبي يسوق فرسه ويشق الصفوف مع سيف الدولة اعتقلت بعمامته أغصان شجر معروف بأم غيلان، فكان كلما جرى الفرس انتشرت العمامة وتخيل المتنبي أن الروم قد ظفرت به، فكان يصيح: الأمان يا علج، فهتف به سيف الدولة: "أي علج؟ هذه شجرة علقت بعمامتك" فود أن الأرض غيبته.

المحتوى

التقديم/ فلك حصرية 5
شخصية المتنبي في شعره/ عباس محمود العقاد..... 15
سرّ الاحتفال بالمتنبي/ محمد حسين هيكل بك 27
من شاعر إلى شاعر/ أحمد محرم 38
هلْ كانَ المتنبي فيلسُوفاً؟/ أحمد أمين..... 43
كان عبقرياً، ولكن/ خليل مطران..... 59
بين أرسطو والمتنبي..... 67
الشاعر أبو الطيب/ علي الجارم..... 70
الدسائس الأدبية بين المتنبي والصاحب بن عباد/ زكي مبارك 84
لمحة عن المنازع القومية في المتنبي/ سامي الكيالي..... 94
من حكم المتنبي..... 100
من نوادر أبي الطيب/ عيسى اسكندر المعلوف..... 102
حياة متعبة ممزوجة بالدم/ شفيق جبري 107
الوصف في شعر المتنبي/ أنيس مقدسي 115
أبو الطيب في مصر نبي في بلاد الوحي لا يوحى إليه/ محمد شوكت التوني 126

الحياة الفنية في عصر المتنبي ماذا بقى من آثارها/ حسن محمد الهواري 137
جنون العظمة في المتنبي مرض نفسي فضيلة خلقية.....150
مرض نفسي/ عبد الرحمن صدقي.....151
بقلم الأستاذ عبد الرحمن صدقي.....151
فضيلة خلقية/ طاهر أحمد الطناحي.....165
من حكم أبي الطيب 180
المتنبي بين محاسنه ومباذله/ شكيب أرسلان 182
أبو الطيب المتنبي تاجر من تجار الأدب/ سليم عبد الأحد 195
بين المتنبي وبعض الشعراء.....211
شهرة المتنبي شهرة العظمة والفن الخالد/ محمد محمد توفيق.....214
هل كان المتنبي متديناً؟ / علي أدهم.....222
نفسية المتنبي تحليل لبعض نواحي حياته/ محمد مظهر سعيد 235
الغموض في شعر المتنبي هل كان المتنبي يتعمّده/ البرقوقي 245
أسباب الغموض في شعر المتنبي/ نقولا الحداد 251

إصدارات سلسلة
كتاب الجيب السابقة

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
1	المقاومة مختارات قصصية	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2006
2	المقاومة مختارات شعرية	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2006
3	القصة القصيرة في سورية الراحلون	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2006
4	علامة الشام أحمد راتب النفاخ	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2007
5	رفقة السلاح ... والقمر	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2007
6	صوت في الظلام قصص ايطالية	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2007
7	الخرز الملون خمسة أيام في حياة نسرين حوري - رواية وثائقية	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2007
8	الأديب - النص - الناقد / د. طه حسين ميخائيل نعيمة -فؤاد الشايب -د. محمود أمين العالم - بدر شاكر السياب	د. خالد البرادعي	د. حسن حميد	2007
9	ظاهرة (الأدب الصهيوني) / إطلالة على :(المصطلح النشأة الموضوعات)	محمد توفيق الصواف	محمد توفيق الصواف	2007
10	أبو خليل القباني رائد المسرح العربي	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2007
11	نازك الملائكة	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2007
12	الشاعر محمد الحريري مختارات	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2007
13	عبد الله عبد مختارات قصصية	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2007
14	الإصلاحيون أحمد أمين	د. حسين جمعة	د. خالد محي الدين البرادعي	2007

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
15	مختارات من أدب الأطفال	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2008
16	ياليل ونصوص أخرى	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2008
17	وداعاً يا دمشق	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2008
18	ماري عجمي في مختارات من الشعر والنثر إصدار الرابطة الثقافية النسائية في دمشق 1944م	د. حسين جمعة	عيسى فتوح	2008
19	إنصاف المرأة	د. حسين جمعة	عيسى فتوح	2008
20	أحب الشام -ناديا خوست	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2008
21	التراب الحزين بديع حقي	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
22	القصيدة الدمشقية وقصائد أخرى- نزار قباني	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
23	مختارات من نوح العندليب شفيق جبري	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
24	مختارات من أعمال الأديبة غادة السمان	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
25	مختارات قصصية للأديبة قمر كيلاني	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
26	مقالات دمشق - مكان وسكان وألوان	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2009
27	سميح القاسم - الصورة الأخيرة في الألبوم	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009
28	مقهى الباشورة -خليل السواحري	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009
29	جبرا ابراهيم جبرا- عرق وقصص أخرى	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009
30	محمود درويش - مختارات شعرية من دواوينه والانترنت	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2009

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
31	عائد إلى حيفا وأعمال أخرى- غسان كنفاني	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2009
32	عذبة رواية- صبحي فحماوي	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2009
33	حكاية الولد الفلسطيني 1971- أحمد دحبور	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009
34	أسئلة الثقافة في القدس والمقاومة- مقالات- المتوكل طه	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2009
35	مختارات من شعر علي الجندي	د. حسين جمعة	محمد حمدان	2010
36	الجولان في القصة السورية (حضور المكان)-علي المزعل	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2010
37	(الامريكي) أحمد رفيق عوض	د. حسن حميد	فاديا غيبور	2010
38	ملكوت البسطاء- رواية -خيري الذهبي	د. حسن حميد	فاديا غيبور	2010
39	مختارات قصصية رقصة ليلة الوداع - رشاد أبو شاور	د. حسن حميد	فاديا غيبور	2010
40	شفيق الكمالي ــ مختارات شعرية زبير سلطان قدوري	زبير سلطان قدوري	فاديا غيبور	2010
41	الأعلام الشعري في التراث العربي - أحمد سويلم	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2010
42	الظل الثالث وقصص أخرى مختارات قصصية - د. خليفة صالح أحواس	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2010
43	بريجيت ماساة تمثيلية ذات خمسة فصول-يوسف نعمة الله جد	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2010
44	انطوان تشيخوف دراسات ونصوص د. شاكر خصباك	د. ابراهيم الجرادي -عبد العزيز المقالح	د. ابراهيم الجرادي -عبد العزيز المقالح	2010
45	عبد الله البردوني قصائد مختارة ودراسات	د. حسين جمعة	د. ابراهيم الجرادي	2011
46	القصيدة تبحث عن نفسها (شعراء التسعينيات والأنماط الشعرية السائدة)	د. ابراهيم الجرادي	د. ابراهيم الجرادي	2011

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
47	مختارات من أدب الخيال العلمي العربي - رقم 004 بأمركم	د. طالب عمران	د. طالب عمران	2011
48	الله والغريب مختارات شعرية سلامة عبيد	فؤاد الكحل	د. ثانرزين الدين	2011
49	مایاکوفسکي غيمة في سروال	مالك صقور	د. ابراهيم الجرادي	2011
50	سليمان العيسى- اليأس : أمل يستنسخ أوصافه	د. ابراهيم الجرادي	د. ابراهيم الجرادي	2011
51	محمد الفراتي مأخوذاً بالوردة والسيف مختارات شعرية	د. حسين جمعة	شاهر امرير	2011
52	نزيه أبو عفش حارس الآلام	د. ابراهيم الجرادي	د. ابراهيم الجرادي	2011
53	الشاعر العربي الحديث مسرحياً	د. علي جعفر العلاق	د. ابراهيم الجرادي	2011
54	حكم النبي محمد ليف تولستوي	مالك صقور	مالك صقور	2011
55	جان جاك روسو المصلح الاجتماعي - محمد عطية الأبرشي	مالك صقور	مالك صقور	2012
56	بدر شاكر السياب- منزل الأقنان	مالك صقور	مالك صقور	2012
57	حي بن يقظان لابن طفيل الأندلسي	د. جميل صليبا- د. كامل عياد	مالك صقور	2012
58	بدوي الجبل (محمد سليمان الأحمد) عام 1968 مدحة عكاش-	د. حسين جمعة	مالك صقور	2012
59	ابن الرومي حياته من شعره ج1 عباس محمود العقاد	مالك صقور	مالك صقور	2012
60	ابن الرومي حياته من شعره ج2 عباس محمود العقاد	مالك صقور	مالك صقور	2012
61	كان ما كان - مبخائيل نعيمة	مالك صقور	مالك صقور	2012
62	إمرأة من برج الحمل - اعتدال رافع	ماجدة حمود	ماجدة حمود	2012
63	من النكبة إلى المقاومة والتجديد	مالك صقور	مالك صقور	2012
64	الأعاصير - الشاعر القروي رشيد سليم الخوري	د. حسين جمعة	د. ثانرزين الدين	2012

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
65	عبـــد اللطيـــف عقـــل دراســـات ومختارات	ياسين فاعور	ياسين فاعور	2012
66	حكيم الدهر أبو العلاء المعري	مالك صقور	مالك صقور	2012
67	الاصدار الأول للموقف الأدبي	مالك صقور	مالك صقور	2012
68	عبقريات العقاد (دراسة وتحليل)	مالك صقور	د. حسين جمعة	2013
69	الاشتراكية والأدب	مالك صقور	د. حسين جمعة	2013
70	رباعيات عمر الخيام	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2013
71	طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2013
72	ليس لدى الكولونيل من يكاتبه		مالك صقور	2013
73	ما الشعر العظيم؟	د. نزار بريك هنيدي	د. حسين جمعة	2013
74	الشعر بين الفنون الجميلة	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2013
75	الفقه والتصوف والمسائل الشرعية في الخلافة	أ. محمد راتب الحلاق	مالك صقور	2013
76	ًصالح العلي ثائراً وشاعراً	أ. د. حسين جمعة	مالك صقور	2013
77	أبو القاسم الشابي شاعر الشباب والحرية	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2013
78	أنا من سلالة الصخور	د. نزار بني المرجة	مالك صقور	2013
79	الأديب والمفكر أبو حيان التوحيدي	د. نزار بني المرجة	مالك صقور	2013
80	الأدب للشعب	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2014
81	مديح الظل العالي	أ. د. حسين جمعة	مالك صقور	2014
82	معارك فكرية	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2014

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
83	واقعية بلا ضفاف	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2014
84	كيف تعلمت الكتابة	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2014
85	السيف والترس	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2014
86	بعث الأمة العربية ورسالتها إلى العالم	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2014
87	الغربال	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2014
88	الله	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2014
89	عصا الحكيم	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2014
90	الفارابي	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2014
91	الأدب الثوري عبر التاريخ	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2014
92	المسألة اليهودية	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2015
93	مذكرات مستر همفر	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2015
94	صوت أبي العلاء	مالك صقور	أ.د. حسين جمعة	2015
95	فن الأدب (جزء 1)	مالك صقور	رضوان قضماني	2015
96	فن الأدب (جزء 2)	مالك صقور	رضوان قضماني	2015
97	الإسلام بين العلم والمدنية	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2015
98	حكيم الدهر أبي العلاء المعري	مالك صقور	مالك صقور	2015
99	شظايا من عمري	شاهر أحمد ناصر	مالك صقور	2015
100	لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2015

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
101	الدين والعلم والمال		مالك صقور	2015
102	غابة الحق (أفق التنوير وجماليات السرد)	نذير جعفر	د. نضال الصالح	2015
103	في الحياة والأدب	نذير جعفر	د. نضال الصالح	2015
104	إن الأدب كان مسؤولاً	مالك صقور	د. نضال الصالح	2016
105	أسرة المرّاش الأدبية في حلب	د. نضال الصالح	عيسى فتوح	2016
106	الجوهر الرجعي للصهيونية	مالك صقور	مالك صقور	2016
107	سريال وقصائد أخرى	د. نـــزار بريـــك هنيدي	د. نضال الصالح	2016
108	حضارة الطين	إسماعيل الملحم	مالك صقور	2016
109	ضرورة الفن الجزء الأول	نذير جعفر	مالك صقور	2016
110	ضرورة الفن الجزء الثاني	نذير جعفر	مالك صقور	2016
111	قادة الفكر	فلك حصرية	مالك صقور	2016
112	جرائم تركيا في سوريا والعراق والحجاز ولبنان	حكمـــت إبـــراهيم هلال	مالك صقور	2016
113	خارج الحريم	إسماعيل الملحم	مالك صقور	2016
114	عيسى عصفور (بلاغة البازلت)	ثائر زين الدين	ثائر زين الدين	2016
115	رحلة الشام لإبراهيم عبد القادر المازني	د. نـــزار بنـــي المرجة	د. نضـــــال الصالح	2017
116	(عمـلاء النفـوذ) وتفكيـك الاتحـاد السوفييتي	د. ناديا خوست	مالك صقور	2017
117	المذابح في أرمينيا	حكمـــت بـــراهيم هلال	مالك صقور	2017
118	نزاريّات...أيقونة الحب... والوطن	فلك حصرية	فلك حصرية	2017

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
119	من ديوان الجرح السوري	ثائر زين الدين	ثائر زين الدين	2017
120	الله والفقر	مالك صقور	مالك صقور	2017
121	قسطنطين زريق مفكراً ومؤرخاً	عيسى فتوح	عيسى فتوح	2017
122	جرح الوطن	محمد حديفي	محمد حديفي	2017
123	فن القصة والمقامة	نذير جعفر	مالك صقور	2017
124	فلاسفة الحكم في العصر الحديث	فلك حصرية	مالك صقور	2017
125	أشعب ملك الطفيليين	فلك حصرية	مالك صقور	2017
126	فيلسوف الفريكة	د. خلف الجراد	مالك صقور	2017
127	الخيال الشعري عند العرب	فلك حصرية	مالك صقور	2018
128	قميص الصوف وقصص اخرى	مالك صقور	فلك حصرية	2018
129	ايقونات	فلك حصرية	فلك حصرية	2018
130	الحياة في الظل	صالح سميا	صالح سميا	2018
131	سيد هارتا	فلك حصرية	مالك صقور	2018
132	وجوه الراحلين	د. بديع السيد اللحام	مالك صقور	2018
133	خصام ونقد	مالك صقور	صبحي سعيد	2018
134	أصوات شعرية من الجزيرة السورية	د. نضال الصالح	علي جمعة الكعود	2018
135	أفاعي الفردوس	حكمت إبراهيم هلال	مالك صقور	2018
136	اعترافات شبابي	فلك حصرية	مالك صقور	2018
137	فن القصة لقصيرة	فلك حصرية	مالك صقور	2018

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
138	شواعر العرب وعظمة الشاعرية	فلك حصرية	مالك صقور	2018
139	عبقرية العرب في العلم والفلسفة	بديع السيد اللحام	مالك صقور	2019
140	علمتني الحياة	فلك حصرية	مالك صقور	2019
141	البطولة في الشعر العربي	فلك حصرية	مالك صقور	2019
142	الأدب في حضرة الجليل	فلك حصرية	مالك صقور	2019
143	وحيدا وَسط السَهب العاري	د. ناديا خوست	د. ثائر زين الدين	2019
144	نيران تحت عرش الطاووس	فلك حصرية	مالك صقور	2019
145	شعر ميسلون	صبحي سعيد قضيماتي	غسان كلاس	2019
146	الشجرة التي غرستها أمي	نزار بني المرجة	نزار بني المرجة	2019
147	الأندلس في التاريخ	أ.د. علي دياب	أ.د. علي دياب	2019
148	المرأة في شعر البحتري	فلك حصرية	مالك صقور	2019
149	زامر الحيّ	فلك حصرية	مالك صقور	2019
150	الوجيز في تاريخ المسرح العالمي	عبد الفتاح رواس قلعه جي	حمدي محمود موصلي	2020
151	قمم في الأدب العالمي	فلك حصرية	مالك صقور	2020
152	بين الفكر التربوي والفكر القومي	صبحي سعيد	عيسى الشماس	2020
153	الفرح ليس مهنتي	فلك حصرية	مالك صقور	2020
154	المذهب الجدلي والمذهب الوضعي	د. صلاح الدين يونس	د. صلاح الدين يونس	2020
155	أحلى قصائدي	فلك حصرية	مالك صقور	2020
156	كتاب التساؤلات	سهيل الشعار	سهيل الشعار	2020
157	زمن الهجرات القصيرة	فلك حصرية	مالك صقور	2020

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
158	طوق الحمامة في الألفة والآلاف	د. علي دياب	د. علي دياب	2020
159	يوم اللغة العربية	د. جورج جبور	د. جورج جبور	2020
160	سارة	فلك حصرية	مالك صقور	2020
161	حديث مع الكوكب	فلك حصرية	أ. سهيل الشعار	2020